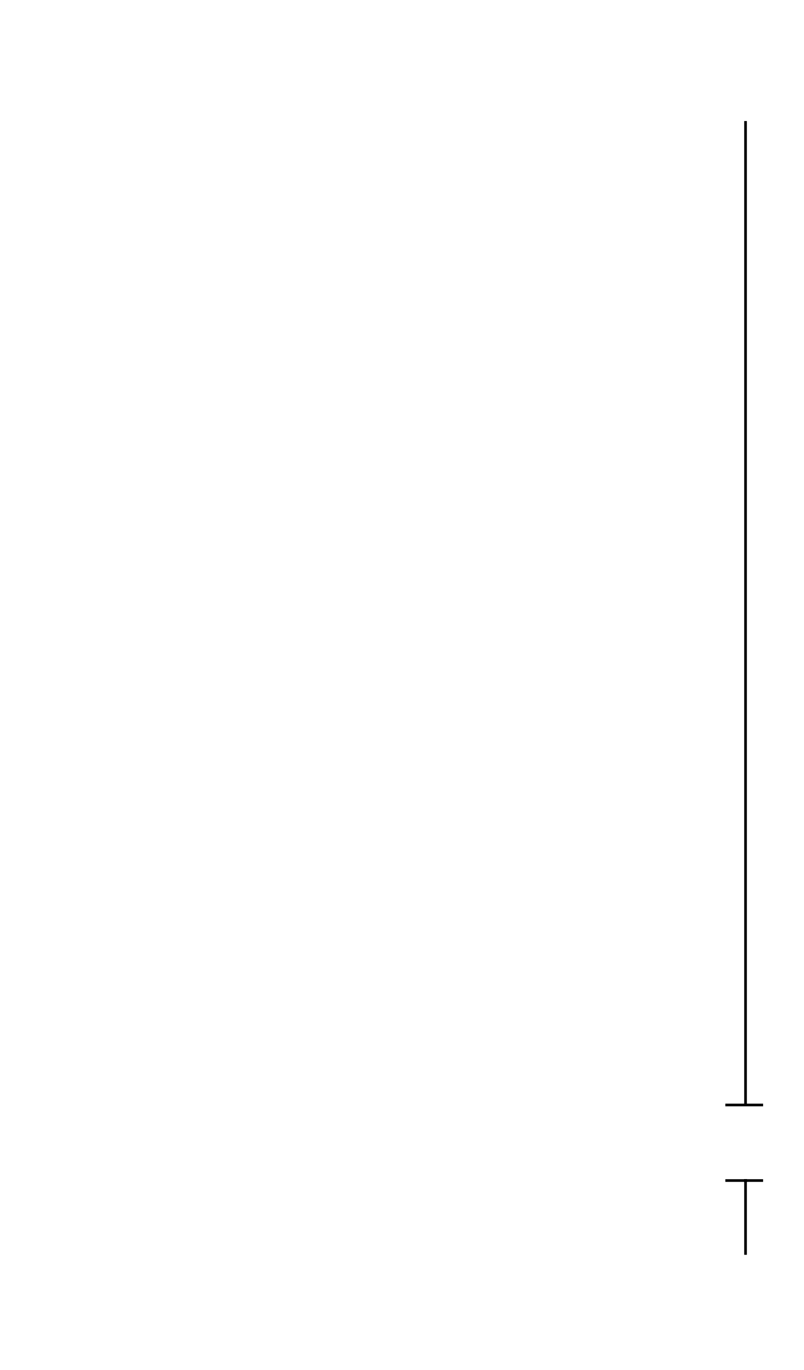


محمد جبريل - أخبار الوقائع القديمة



أخبار الوقائع القديمة

مجموعة قصصية

محمد جبريل

سلسلة
أصوات أدبية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

- أخبار الوقائع القديمة
- محمد جبريل
- الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2009 م
120ص - 13,5 × 19,5 سم
- تصميم الغلاف: د. خالد سرور
- المراجعة اللغوية: نهلة فيصل
طلعت محمد أحمد
- رقم الإيداع: ١٩٦٦٧ / ٢٠٠٩
- الترقيم الدولى: 978-977-479-599-3
- المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

- الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

407

سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداع أدباء مصر
فى الشعر والقصة والرواية

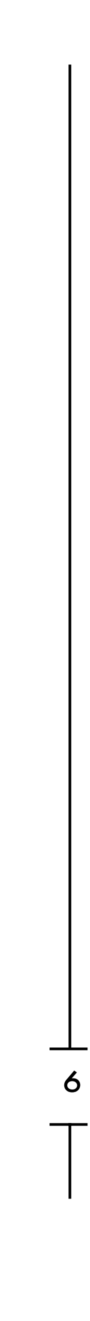
أخبار الوقائع القديمة

3

إهـــداء

إلى أحمد عبدالوهاب ومحسن الخياط

وسيد جاد وعطية السيد.. صداقات أفتقدها.



انكسارات الرؤى المستحيلة

قال أحمد أنيس وهو يضع رزمة النقود على مكتبى :

– ثلاث ساعات وأنا أتنقل بين البنك المركزى وبنك مصر وبنك فيصل . .

أودعت رزمة النقود درج المكتب :

– ما فعلته جزء من عملك ، فلمَ تشكو ؟

رسم على وجهه ابتسامة معتذرة :

– لم أقصد الشكوى ، لكننى أشرح ما حدث . .

لما ضاق وقتى عن استيعاب مسئولياتى ، عهدت إلى أحمد أنيس بأن يقدم لى من وقته بدلا من وقتى الذى لم يكن بوسعى أن أضيعه . مكانتى تفرض الحاجة إلى الوقت . أختلف مع ما يحتاجه أحمد أنيس . هو لا يريد إلا الأجر الذى ينفق

منه على احتياجات يومه..

كنت أضيع الوقت فى انتظار المصعد، دورى أمام شباك السينما، وفى مكاتب شركات الطيران، وداخل البنك، وصالة الاستقبال بعيادة الطبيب، الوقوف بالسيارة فى إشارة المرور، والوقوف فى طوابير وصفوف، انتظاراً لشىء أطلبه، واللقاءات الشخصية، وأحاديث التليفون، والتوقيع على أوراق مهمة، وبلا قيمة. وكان الطريق يبتلع أكثر من ساعة بين البيت فى مصر الجديدة، والمكتب فى المهندسين.

ماذا يحدث لو أنى لم أعترف بالوقت؟ لو أنى أنكرت وجوده أصلاً؟.. أصحو وأعمل وأنام. لايرتبط ما أفعله بشروق الشمس ولا غروبها، ولا أيام السبت والأحد إلى نهاية الأسبوع. حتى الساعة أنزعها من يدى، فلا يشغلنى ما فات ولا ما أترقبه. لكن الآخرين يصرّون على السنة والشهر والساعة واللحظة. يصرّون على الوقت..

هذا ما أفعله بالضرورة.

الوقت الذى لا يضيع، لا يمكن أن أسترده، أو أعوضه. حرصت على أن أختصر من عاداتى ما يضيف إلى وقت الإنجاز. لم أعد أحلق ذقنى صباح كل يوم. ربما أخرت حلاقتها إلى صباح اليوم الثالث. تبينت أنه لم تعد الذقن غير الحليقة تليق بمكانتى. أوصيت على ماكينة كهربائية، أستعملها فى الأوقات الضائعة، فى جلستى وراء السائق.

وكنت أرجئ تنفيذ بعض ما يجب إنجازه، فأنهيه فى وقت واحد..

قرأت أن الوقت هو الرمز النهائى للسيادة، وأن هؤلاء الذين يسيطرون على وقت الآخرين لديهم القوة. مَنْ يملكون القوة يسيطرون على وقت الآخرين..

أريد أن أفيد من كل ساعة، كل دقيقة، كل ثانية. لدى الكثير مما يهمنى أن أنجزه. الحياة قصيرة إن لم نحسن استغلالها. نضيف إليها وقت الآخرين، ما نحصل عليه من وقتهم. لن تمضى حياتى على النحو الذى أطلبه، ما لم تأخذ من حياة الآخرين. إنهم يجب أن يضيفوا إلى حياتى، يعملون لها..

أزمعت أن أحصل على الوقت الذى أحتاج إليه من رجل، شاب، عنده الفائض من الوقت..

أطلت الوقوف على باب الحجرة، حتى رفع أحمد أنيس رأسه من الأوراق والملفات المكدسة على المكتب:

- أفندم يا سعادة البك..

سعدت للذهول - وربما الخوف - الذى نطق فى ملامحه..

لم أتردد على مكتبه، ولا أى مكان فى المبنى. المرئيات ثابتة منذ الباب الخارجى، وصعودى السلمات العشر، ثم الميل إلى اليمين، والسير فى الطرقة المفروشة بالمشاية الحمراء، الطويلة، على جانبيها لوحات أصلية، وإضاءة

خافتة. شندى الساعى – فى نهاية الطرقة – يسرع إلى فتح الباب. تطالعنى الحجرة الواسعة، المطلة على النيل: الأبواب والنوافذ ذات النقوش البارزة، والزجاج المتداخل الألوان، والأرفف الخشبية رصت فوقها كتب وأوراق وأيقونات صغيرة وشمعدانات، والأرض فرشت سجادة تغلب عليها النقوش الحمراء، فوقها كنبتان متقابلتان، يتخللهما طاولات وكراسٍ، والمكتب الضخم فى الوسط، من الأبنوس والصدف، وقبالة الباب مرآة هائلة تغطى معظم مساحة الجدار، وتدلت من السقف نجفة كريستال هائلة..

بدا أحمد أنيس مرتبكًا، لايدرى إن كان عليه أن يظل فى وقفته أم يقبل ناحيتى..

أشرت إليه، فلم يغادر موضعه. أهملت ما ينبغى على رئيس العمل أن يحرص عليه. يستدعى مرءوسيه ولا يذهب إليهم. تأتيه أخبارهم، ويضع جدارا غير مرئى بينهم وبينه..

قلت:

– أحيى إخلاصك..

– هذا هو عملى..

فاجأته بالسؤال:

– هل المرتب يكفيك؟

وهو يغالب الارتباك:

– أدبر نفسى..

- ما رأيك فى عمل بعد الظهر ؟

وشى صوته بالانفعال :

- سيادتك . .

ثم فى استسلام :

- أنت الرئيس ومن حقك . .

قاطعته :

- لا شأن لهذا العمل برئاستى . . إنه عمل آخر . . إضافى . . رنوت إليه متمليًا : القامة القصيرة ، المدكوكة ، الجبهة الواسعة ، الوجنتين البارزتين ، الأسنان التى اختلط فيها السواد والصفرة ، البشرة الدهنية ، دائمة التفصد بالعرق . .

حدست السؤال الذى لا بد أنه سيخاطب به نفسه : لماذا اخترته دونا عن بقية الموظفين؟

فتشت عن الكلمات لأشرح له بواعث اختيارى . ثم تنبهت إلى أنه ليس من حقه أن يسألنى ، ولا أن يناقشنى فيما أختار . .

تركت له معظم الوقت الذى كان يسرقنى . تحكم فيه بما أثار إعجابى ، وربما حسدى . أجاد كل ما أسندته إليه . .

لم يكن يمارس عملاً واحداً ، هو سكرتير ، وسائق ، وطباخ ، وخادم ، أدهشنى بما يعرفه فى الأبراج وعلوم الفلك وقراءة الطالع ، وفهمه لقوانين الألعاب الرياضية ، وحفظه لفرق الوقت فى مدن العالم ، وللنكات الحديثة ، وإجادته تلخيص

الروايات والمسرحيات والأفلام بما لا يخل بالمعنى، وتقديم المعلومة التى تعوزنى فى اللحظة التى أطلبها. ربما لجأت إليه فى أوقات الليل يسرِّى عنى بحكايته الغريبة، المشوقة..

وفر لى النجاح فى استثمار الوقت ساعات أخرى: يعرفنى مفتشو الجمارك، فيتركون حقائبى بلا تفتيش. لا يفتحون الحقائب أصلاً. يتعرف على التاجر، ويعرفنى بنفسه، يجرى لى ما لم أكن طلبته من خصم على ما اشتريته. وكان يخلص - بلا متاعب - أذون الشحن، ويتذوق الطعام الجيد، ويشير بالأماكن المريحة، ويجيد تقليد الأصوات والحركات، ويجيد اختيار الطاولة القريبة من «بيست» الملهى الليلى، ويحسن التصرف فى الأوقات السخيفة، وينقل فضائح المجتمعات الراقية، ويتحمل العبارات التى يمليها الغضب.

ما وصلت إليه من مكانة، يدفع من ألتقى بهم إلى انتظارى، فلا يشغلنى انتظارهم. ينتظرون حتى الموعد الذى أحدده. من المسموح لى أن أضيع وقتهم وليس من حقهم أن يضيعوا وقتى. أعتذر بالقول: أنا مشغول الآن.. هل يمكن إرجاء هذا الأمر إلى وقت آخر؟.... هذه المشكلة تحتاج إلى مناقشة ليس الآن مجالها.. سأحدثك عن ملاحظاتى فى فرصة قادمة.. أملى القرار، لا أتوقعه، لا أنتظره.

عاودت النظر إلى ساعة الحائط، تثبت من الوقت فى ساعة يدى. يدخل الخادم بالصحف فى التاسعة صباحًا. أطالعها،

أو أتصفحها، حتى التاسعة والنصف..

علا صوتى:

– أين الصحف؟

– سألخصها لسيادتك..

لم أفطن إلى وجوده فى الفراندة المطلة على الحديقة الخلفية. اعتدلت بحيث واجهته:

– لكننى أقرؤها بنفسى..

– الأخبار المهمة سألخصها بنفسى..

ثم وهو يربت صدره:

– هذا عملى..

تبادلت كلامًا – لا صلة له بالعمل – مع أصدقاء فى الكازينو المطل على النيل. أفيد من فائض الوقت، ولا أعانى قلّته. تحدثنا فى السياسة، والأغنيات الجديدة، ومباريات الكرة، وتقلبات الجو، وفوائد السير – كل صباح – على طريق الكورنيش.

لم يعد هناك ما يشغلنى. أحمد أنيس تكفل بكل شىء. يتابع تنفيذ القرارات دون أن يستأذننى فى إصدارها. حتى المكالمات التليفونية يسبقنى إلى الرد عليها، يؤكد وجودى، أو يلغيه.. يتمازج الإشفاق والود فى ملامحه:

– نحن أوْلى بالوقت..

علا صوتى – بعفوية – حين دفع باب حجرة المكتب،

ودخل. تبعه ما يقرب من العشرة. يحملون كاميرا وحوامل وأوراقًا وأشرطة تسجيل..

أشار أحدهم - دون أن يلتفت ناحيتى - إلى مواضع فى المكتب يرى أنها تستحق التصوير..

لم أكن مشغولاً بقراءة ولا متابعة، ولا أستمع إلى الإذاعة أو أشاهد التليفزيون. كنت أتأمل لوحة الجيوكندا، وسط الجدار، أحاول تبين ما إذا كانت نظرة الموناليزا تتجه - بالفعل - إلى كل من ينظر إليها..

وضع فمه فى أذنى:

- هذا برنامج للتليفزيون.. عن مشوار حياتك..

- لكننى غير مستعد لهذا البرنامج.. لست مستعداً لأى شىء..

دفع لى بأوراق:

- عليك فقط أن تتصفح هذه الكلمات..

وقلت له - ذات مساء - بلهجة معاتبة:

- يفاجئنى الأصدقاء بالشكر على رسائل تهنئة وهدايا..

وهو يدفع نظارته الطبية على أرنبة أنفه:

- عندى قوائم لكل المناسبات السعيدة للأصدقاء.. وأتابع أنشطتهم الاجتماعية جيداً..

مددت شفتى السفلى دلالة الحيرة:

- أخشى أنهم يفطنون لارتباكى..

وواجهته بنظرة متسائلة :

– لماذا لا تبلغنى بهذه المناسبات قبل أن ترسل تهانيك وهداياك ؟

– وقتك أثمن أن تبدده فى هذه التفاصيل الصغيرة . .

أعدت النظر إِلى ما كنت أطلبه من أحمد أنيس .

لم أعد أرفض قيامه بشىء ما دون أن يبلغنى به . كان يرد على الرسائل دون أن يتيح لى قراءتها ، ويبلغ المتحدث على التليفون بما يرى أنها تعليماتى ، ويبعث بالمذكرات إِلى من ينتظرونها ، ويوافق على الدعوات التى يثق فى ترحيبى بها ، ويرفض ما يثق أنى سأرفضه . .

طويت الجريدة ، ووضعتها على الطاولة أمامى :

– أنا لم أقل هذا الكلام . .

بدا عليه ارتباك :

– لكنه يعبر عن آرائك .

ثم وهو يرسم على شفتيه ابتسامة باهتة :

– هل فيه ما ترفضه ؟

– بالعكس . . لكنه ينسب لى ما لم أقله . .

أحنى رأسه بالابتسامة الباهتة :

– دع لى مسألة الحوارات والأحاديث . لأنها تأخذ من وقتك ما قد تحتاجه للراحة أو التأمل . .

وأنا أعانى إِحساس المحاصرة :

- إذن ناقشني في الأفكار التي ستقولها..

تهدج صوته بالانفعال:

- هذا ما سأفعله حين يصادفني ما أحتاج لمعرفته..

بدا لي أن العالم رتب أموره بدوني.. لم يعد لدى ما أفعله سوى التأمل واستعادة الذكريات. مللت ما أحبه من أغنيات، فأهملت سماعها. سئمت مشاهدة الأفلام التي وضعها في الفيديو. فارقني القلق والتوقع والتخمين. تنبهت لانشغال يدى بمسح زجاج المكتب بمنديل ورقي. رنوت ناحية الباب الموارب، أتأكد إن كان أحد، قد رأى ما فعلت..

قلت:

- أنت تأخذ قرارى؟

ارتعشت أهدابه:

- أنا أحدس رأيك..

غالبت نفسي فلا يبين ما أعانيه:

- ماذا أفعل أنا إذن؟

- أنت تخطط وتشرف.. وأنا أنفذ..

حدجته بنظرة تفتش عن معنى غائب:

- هذا لم يعد يحدث..

حدثني عما لم أكن أعرفه في نفسي. أبتعد بنظراتي، ولا أميل إلى المجتمعات، ولا أصلح للخطابة، أو التحدث في اللقاءات العامة. لا يجتذبني ما قد يثير الآخرين، وأعاني

التردد فى الاختيار، وفى اتخاذ القرار، والمجازفة..

أومأت على ملاحظاته بالموافقة.. لم أحاول السؤال، أو مناقشة التصرفات التى جعلتنى ذلك الرجل فعلاً..

أتابعه بنظرة ساكنة وهو يتحرك فى حجرات البيت. يرفع الصور واللوحات من أماكنها على الجدران. ينقلها إلى مواضع أخرى. لا يعنى حتى بأن يلمح - فى ملامحى - انعكاس ما يفعله. يبدى إشفاقه. فيغلبنى التأثر. يغادر الفندق - فى رحلاتى خارج البلاد - إلى الجولات الترفيهية، وزيارة أماكن السياحة والتسوق..

لم أعد أعرف القرار الذى يجدر بى أن أتخذه، ولا ما يجب عليه هو كذلك. اختلطت الرؤى، وتشابكت، فلا أعرف إلا أنه ينبغى أن أسلم نفسى للهدوء، وما يشبه الاستسلام، أكتفى بالمتابعة الصامتة، الساكنة. لا أفكر، ولا أتكلم، ولا أقدم على أى فعل. حتى التصور لم يعد يطرأ ببالى، أحمد أنيس وحده هو الذى يفعل كل شىء..

كيف أذوق حلاوة ما لا أعرفه؟

لو أنى تخلصت من الأوراق التى يبحثون عنها، ربما تخلصت مما أعانيه. يرفعون الحصار، فأعود إلى مألوف حياتى، أطمئن إلى ما حولى، فيغيب الحذر والتوقع، لكن النهاية - التى أخشاها - قد تتربص بى فى نهاية الممر. يتخلصون من مصدر السر إذا تخلص من السر نفسه.

أشعر بأنى وحيد تماماً، فى قلب الصخب الذى لا أسمعه، أفواه تفتح وتغلق، إشارات، تطويحات، لكن الصمت يظل قائماً. أنعزل فى جزيرتى عن صخب الأمواج المتلاطمة حولى. أكتفى بالتخيل، ومحاولة تفسير حركات الشفتين وتعبيرات الأيدى. يبقى حصار السكون على حاله، لايأذن بالتواصل.

أسير فى الطريق، يرافقنى هسيس تغيب مفرداته. أعرف أن الأصوات تتعالى من كل ما حولى: الأبواب، النوافذ، الشرفات، الأرصفة، قلب الطريق. المارة والسيارات والعربات والموتوسيكلات والطيور والهتافات والنداءات وصفافير البواخر المترامية من الميناء الغربى. لا أسمع الأصوات، أتخيلها..

هونت الأمر بأنى لست مضطراً كى أستمع إلى تفاهات الناس وملاحظاتهم السخفية. ليس مطلوباً حتى أن أتظاهر بالإنصات. ربما اكتفيت بالتحدث إلى نفسى. أناقشها، آخذ منها وأعطى. أستغنى عن الآخرين.

الحوار يدور بين اثنين.. لماذا لايدور بين المرء ونفسه؟

ما يضايقنى أنى لا أعرف صوتى، لا أعرف كيف أستمع إلى صوتى.

صوتى يصل إلى حيث يتيح له ارتفاعه، لكنه لا يصل إلى أذنى..

يعلو صوتى بالغناء، أهمل الالتفات والنظرات المتسائلة والمستغربة. الأغنية فى داخلى. أحرص على الكلمات واللحن، وإن رفضت أذناى الاستجابة، تبلغ الأغنية شفتى. وتبتعد، تتلاشى فلا أسمعها.

سألنى الشاب ذو القامة الممتلئة عما لم أسمعه. أشرت إلى أذنى، وأدرت أصابعى بما يعكس المعنى. تراجع بظهره إلى

الوراء كالخائف.

هل تصور أنى أهدده؟

فاقد البصر - كما تعلم - يستطيع الحياة، الحركة والتصرف والتواصل مع الآخرين. ذلك ما يستطيعه - بالتأكيد - فاقد السمع. لو أنه أفاد من حواسه الأخرى، فسيعوض وظيفة الأذن. أضع اهتمامى فى عينى وحدهما. تشحب بقية الحواس بغياب السمع. العينان وسيلة التعرف إلى الأشياء من حولى، وملاحظة التصرفات، والتوقع.

أقرأ عن الزحام والضجيج والصياح والصراخ والنداءات والشتائم. أرى التصرفات وحدها، ما يبين فى الوجوه والأجساد وتلويحات الأيدى وركلات الأقدام واتساع الشفاه وانطباقها. الصمت يحيط بى، وبكل شىء، تغيب الأصوات، لكننى أشعر بالتلامس والاحتكاك والدفع واللكزات.

حاولت أن أستمع بعينى. أتابع حركات الشفاه والرءوس، وتعبيرات الأيدى، أفهم المعنى، وإن لم أحدده تمامًا. ألتقط ما يحاول محدثى إخفاءه فى ملامح الوجه، فى لمعة العين وانطفائها، وفى اختلاجة الأنف أو الرموش، أو حمرة الأذنين. ألتقط بقايا الأصوات. أصل الخيوط الرفيعة والمتلاشية، بما تحفظه الذاكرة، أو تلتقطه العينان من حركات الشفاه. أدرك أن للأشخاص رائحة تجتذبنى إليهم عن بعد،

حتى لو لم أستمع إلى أصواتهم، حتى لو لم أشاهدهم..

لم يكن فقد السمع يتيح لى أداء عملى على نحو صحيح. المناقشات والأسئلة والأجوبة والآراء المؤيدة والآراء المخالفة. أتابعها فى حركات الشفاه، دون أن تتيح لى السماعة على أذنى التقاطها جيدا. تختلط الأصوات، وتتشابك، وتخفت، تبدو كالأصداء البعيدة..

فعلت المستحيل لأتعرف على ما يدبرونه. الأوراق والوثائق، وما يحرصون على كتمه فى جلساتهم السرية..

لم أتحدث عن فقد السمع. أشرت إلى ضعف سمعى، وإن لم يعرف أحد أنى فقدت سمعى تمامًا. يريدون ما بحوزتى من وثائق تحسم أمر الحياة والموت.

خشيت أن يتسلل إلى الشقة من يحاولون استغلال غياب سمعى. يحصلون على ما يريدون، بلا صوت، وبالاحتراز.

الضربة المفاجئة على رأسى - لا أذكر من أين أتت - أفقدتنى الوعى.

عانيت - فى الأيام التالية - صفيرًا ووشيشًا. تعددت محاولات الأطباء، حتى فقدت السمع تمامًا. احتوانى صمت، وداخلنى شعور بأنى أخترق ردهة، أو ممرًا، أو طرقة، وأن الأبواب يتوالى إغلاقها خلفى.

من هم؟ لماذا يتبعوننى؟ هل يريدون ما بحوزتى من أوراق؟ أفلحت - بطريقة ما - فى الإفلات من الأعين الراصدة،

والمتابعة، والأقدام التى لاتكف عن الملاحقة.

عانيت القلق والتلفت. يتملكنى شعور بأن عينًا ترصدنى فى الأركان المظلمة، أو وراء أبواب البنايات المطلة على الميدان الفسيح، أو تحت حنية سلم البيت. أتعمد فلا ألتفت حولى. أقفز درجات السلم، وفى يدى مفتاح الشقة، أديره فى الباب، وتتحسس يسراى - تعرف طريقها - موضع مفتاح النور، فتضغط عليه.

ربما أحكمت إغلاق الأبواب والنوافذ. أتأكد من إغلاق الأقفال والمزاليج والسلاسل. أترك الأنوار مضاءة، ثم أتجه إلى حجرة النوم، أرفع الستائر، أتأكد من أنه لايختبئ وراءها أحد. لا أترك الحجرة إلا إلى الحمام، وأعود. حتى التليفزيون - فى الصالة - لم أعد أشاهده. أتوقع من يقتحم الغرفة.

وأنا أتأكد من رتاج النافذة الخلفية، لاحظت مدق الأساس يصعد ويهبط، فى الأرض الخلاء المقابلة.

هل يريدون التأكد مما أعانيه؟ هل يريدون التأكد مما إذا كنت خائفًا؟

المصادفة - وحدها - أطلت بى على موقع البناية التى يجرى دق أساساتها لم أكن ألحظ أى شىء، لو لم أحاول إغلاق النافذة فى وجه النيات الشريرة.

يؤلمنى أن تصوراتى لا تتألف مما يمكن سماعه. الصورة الصامتة بلا أصوات، للأصوات تعددها مثل الألوان، الهمس

والزعيق والصياح والصراخ والضحك والأنين والبكاء والحشرجة.

تأملت حركة الشفتين وأنا أحدق فى المرآة أمامى:

– أقسى الأمور أن يطاردك من لا تراهم..

وأبطأت فى نطق الكلمات:

– تفر من الذين يتغطون بالصمت.

صحبت المرأة من رصيف الكورنيش. لم ألحظ مدى اقترابها من الجمال ولا ابتعادها عنه، ولا إن كانت مثيرة بما يحقق النشوة. بدت وسيلة لتبين الأصداء، الوسوسة التى تغيب مفرداتها. يضايقنى اللقاء الأخرس، تفرض فيه الآلية حركاتها الصامتة كأنها عرض البانتوميم، نكتفى فيه بالتخيل دون الملامسة. تعرف المرأة ما أعانيه، فتصمت. تكتفى بحركات الجسد، الأوضاع التى أطلبها، أو تخمن أنها ترضينى.

لكزتها لعلو صوتها بما أتوق إليه. حدقت – منتشياً – فى اتساع العينين، والفم المفتوح، وارتعاشات الملامح، والعبارات التى لا أسمعها، وإن مضت بى فى آفاق لاحدود لها.

زادت جرأتى بالفعل الذى رأيته. خلفنا ما يفرض الخوف فى رقصاتنا المحمومة بين الأخاديد والتعرجات وداخل الكهوف والأعماق المظلمة.

رويت للمرأة ما أعانيه. لم أشر إلى ما فى حوزتى من

أوراق، وإن كلمتها عن المطاردات التى لا تنتهى.

ظهر الإشفاق فى تعبيرات الوجه واليدين واهتزازات الجسد.

قلت:

- أنت لاتملكين شيئا لإنقاذى مما أعانيه، أكلمك لمجرد البوح.

وشىء نطق كلماتها التالية بتوتر.

وضعت أصابعى فوق شفتيها:

- أنا لا أسمعك، وأنت لاتملكين ما يساعدنى.

أعرف أن صوت جرس باب الشقة لايختلف عن أصوات بقية الأجراس. لكن أذنى تعجزان عن سماعه.

يضغط القادم زر الجرس، إلى جانب الباب المغلق. تضاء الصالة والحجرات. حتى المطبخ ودورة المياه. حتى الشرفة المطلة على الشارع الخلفى، تضاء اللمبة المعلقة فى سقفها. أدرك أن يداً ضغطت على زر الجرس. أتجه ناحية الباب لأفتحه. حتى جهاز التليفون، وصلته بلمبة كهربائية، تضىء بالتوافق مع رنين الاتصال..

هل خطر على بال مخترع الكهرباء أنها قد تفيد فاقدى السمع؟

لم أكن فى حاجة إلى ضوء لأعرف طريقى. أتحسسه دون إضاءة. الإضاءة هى البديل للصوت، يتتابع وميض اللمبات.

أدرك أن يداً تضغط على جرس الباب.

الجرس ليس صوتًا، لكنه ضوء. يضيء لى ظلمة فقد السمع. أنصت إليه بعينى. ينبهنى إلى الواقف أمام الباب، إلى الطارق الذى أعرفه، أو لا أعرفه.

يتكرر انقطاع التيار الكهربائى. أضغط على زر النور فى الحجرة التى أكون فيها. أخشى ضغطة الجرس. تكتشف الصمت، فتطرق الباب. يظل الصمت على حاله..

واجهت مشكلة العتمة. تضاء اللمبات بالضغط على مفتاح النور. يرتبط ما يحدث بضوء النهار. لو أنى توقعت ضغط الجرس فى البيت، فسأظل طيلة الليل فى الظلمة..

أشعلت عوداً من الكبرتى. واصلت البحث فى أدراج المطبخ. وجدت شمعة قصيرة، متآكلة. أشعلتها. وضعتها على الطاولة الرخامية. أنا أرى، وإن كنت لا أسمع. إذا ارتفع صوت الجرس، فلن أستطيع سماعه.

ماذا لو حاولوا تحطيم الباب؟ كيف أواجه ما يحدث بالتصدى، أو الفرار؟

حين تتابعت ومضات النور، أدركت أن إصبعًا يضغط بإلحاح على زر الجرس. لكن الظلمة حطت على المكان، فلا أستطيع التحرك.

ضغط على زر النور، على جانب الباب. ظلت الظلمة سائدة. لا أرى شيئا، لا أسمع شيئا، لا شىء..

حدست ارتفاع رنين الجرس. ما يشبه الذبذبات فى جسدى، تشى بتواصل الرنين. لا صوت، والظلمة تسود المكان. لكن الصمت من حولى بدا مشوبًا بصوت لم أتبينه، وإن كنت على ثقة أنه موجود.

الظلمة المتكاثفة تلزمنى موضعى فى حجرة المكتب. لا أقدر أن أمضى فى الطرقة الضيقة. أغوص فى العتمة. أخترق الصالة الواسعة، تناثر فيها الأثاث والأوراق والملفات والوثائق، بما يعيق وصولى إلى الباب الخارجى. أتبين الطارق من شراعة الباب.

عرفت من تلاحق الضوء أمام النافذة. أنه وميض البرق، وإن غاب صوت الرعد عن سمعى. أدركت - من خلال الاهتزاز العنيف لأوراق الشجرة وفروعها فى الخارج - أن العاصفة قريبة.

بدا الخوف فى داخلى فوق ما أحتمل، فوق طاقتى. كل هذه الظلمة. أخفقت فى التماسك. ساقاى تخذلاننى، لا أستطيع أن أقف، أو أمشى.

علا صوتى بصراخ لم أتصور أنه يصدر عنى. لكن الصمت ظل سادرًا.

تحركت فى الشقة. أتحسس الجدران، أحاذر الاصطدام بالأثاث. أعرف - فى الظلمة - مواضع الأثاث، وأماكن الأبواب والنوافذ والستائر. أزحت حافة الستارة فى الزاوية

اليمنى بما يتيح لى النظر من الفتحة الطولية إلى الطريق . .

فاجأتنى الضربة . لم أدر من وجهها ، ولا الآلة التى ضربنى بها . هل هى عصا ، أو قطعة حديد ، أو أنه هوى على رأسى بقبضته ؟

ما تبينته – بعد أن أفقت – أنى لم أعد أبصر . تداخل الصمت والعتمة .

حدست أن النور مقطوع . تحسست طريقى إلى النافذة . فتحت ضلفتيها . ظلت العتمة على حالها .

أدركت ما حدث .

ملت ناحية الطريق . أعرف أنه يشغى بالحياة فى الليل والنهار . إذا كان ضوء النهار قد انسحب ، فإن أضواء البيوت المقابلة ، والمجاورة ، وأعمدة الطريق ، تتيح رؤية الناس لى ، ورؤيتى لهم .

أرفض التصور بأنى عاجز عن التصرف .

عاودت التحسس إلى المكتبة التى أعرف موضعها . ذكرت الأرقام إلى عشرة ، ثم سحبت الكتاب الحادى عشر .

ملت – ثانية – من النافذة ، فردت الكتاب ، فسقط ما به من أوراق . يهمنى أن تصل إلى الناس . أن يقرءوها ، ويتدبروا ما ينبغى أن يحدث .

أخبار الوقائع القديمة

- ١ -

شخص الطبيب ما حدث بأنه ذبحة صدرية. حذر من مضاعفاتها، وإن توقع الشفاء إذا لزم أبى الفراش، ولم يخرج إلى العمل، وابتعد عن كل ما يثير انفعاله، أو يغضبه.

كتب له أدوية، ونصح بالاعتدال، والنظام، وبالإقلال، من الطعام، والاقتصار على أطعمة لايبدلها. أعاد تحذيره من الانفعالات التى قد تأتى بتأثيرات يصعب التنبؤ بها.

شعر أبى - كما روى فيما بعد - بعشرات السكاكين تقطع صدره، ويدين تقبضان على عنقه، تضغطان وتضغطان، بقوة لا عهد له بها، كأنهما يفرغان صدره من الهواء، أو تمنعان عنه التنفس، أو تحاولان فصل رأسه. كنت أتحدث عن الموت، وأراه فى الآخرين. واجهته للمرة الأولى، هو شىء قاس،

تمنيت - رغم امتثالى لمشيئة الله - ألا أواجهه مرة ثانية. أنا لا أخاف الموت، أراه نهاية لابد أن تأتى، لايشغلنى حتى مابعد الموت، ما يقلقنى - منذ اعتصر عنقى، ومنع النفس عن صدرى - هو لحظة الموت نفسها، القسوة التى يصعب أن أستعيدها.

- ٢ -

لا أعرف إن كان أبى قد نفذ تعليمات الطبيب. لزم الفراش فلا يستطيع أحدنا حتى التخمين إن كان قد حاول أن يطرد من نفسه ما لا ينبغى أن ينشغل به.

كثر تذكره لأيام العمل. يعيد ما كرر روايته عن أيام إدارته لمرصد كوم الناضورة. يحزنه أن المرصد - قبل أن تشيخ معداته - كان يغطى الرؤية إلى مابعد البوغاز، يشاهد من موقعه - أعلى المرصد - أبراج البواخر، ومداخنها، وطوابقها العالية، والأسوار المحيطة بأسطحها، وازدحام الأرصفة بحركة الرافعات والأوناش وعربات النقل، والأضواء المتناثرة على مساحة واسعة فى قلب الميناء، تنعكس على صفحة الموج، ودخول البواخر وخروجها، تحولها إلى نقاط ما تلبث أن تتلاشى فى نهاية الأفق.

- كنت أقف فى الموقع نفسه الذى وقف فيه نابليون فى بداية غزوه لمصر.

ثم وهو يهز إصبعه:

- وقفتى تختلف، هى لرصد الغزو، لمنعه..

يتحدث عن أيام الحرب العالمية الثانية. يتأمل الفراغ بعينين محدقتين. كأنه يرى ما يتحدث عنه: صفارات الإنذار والمخابئ وأكياس الرمل والأسمنت والكشافات وقيود الإضاءة والضوء الأزرق والطوربيدات وعساكر الإنجليز والهنود والأفارقة فى شوارع الإسكندرية..

لا نتبين كلماته فى البداية، ولا نتابعها. خفوت صوته ما يلبث أن يعلو بالانفعال، فيبلغ حد الزعيق. ينسى تقارب الجلسة، والآذان المنصتة، والأعين المحدقة. تنعكس دراسته العسكرية، وعمله فى المرصد، على نبرات صوته، وطريقة أدائه.

يذكر أمى بأيامهما الفائتة.

ظل يكرر حتى بدأت تربت كتفه، وتقول برفق: كل هذا رويته.

لم يكن فى حوزته سوى حكايات قليلة عن عمله فى المرصد، يضيف إليها إشفاقه من الدمار الذى جرى فى البناء. تشققت الجدران والأسوار، وتساقطت ضلف النوافذ، وتآكلت السلالم الحجرية. يعيد ما قاله دون إضافة ولا حذف. هذا ماحدث، هو هو فى كل مرة. تكررت حكاياته حتى عشنا كل تفاصيلها.

نال المرض - وربما القعدة الطويلة - من صمت أبى . بدا أنه استنفد ما لديه ، مال إلى صمت يغلب عليه الشرود ، لم يعد إلى ماكان عليه من إلقاء الأسئلة ، والمعلومات ، ورواية الحكايات ، واستعادة الذكريات القديمة ، وإن أظهر ضيقه من كثرة الأدوية ، وتوالى أوقات تعاطيها : الأقراص والملاعق الصغيرة والكبيرة ، والأشربة ذات المذاق الحلو ، أو الأقرب إلى المرارة .

كان يعانى فى استعادة ما يريد أن يتحدث عنه ، يحيط جبهته بإصبعيه ، ويحاول التذكر ، يلملم كلمات يتصور أنها أدت المعنى ، يضيف إليها من هزات رأسه ، وتعبيرات يديه ، ما يوضحها . قد يكتفى بالتحديق فى سقف الحجرة .

النافذة المغلقة ، والباب الموارب ، والستارة الثقيلة ، جعلت الحجرة تسبح فى ظلمة خافتة تبين فيها المرئيات بصعوبة .

تمازج الإشفاق والغضب في ملامح أمى ، عندما همس بأمنيته فى أن يأخذه الموت ، فلا يصبح عالة . .

- تصر على مضايقتى . .

- أخاف أن تملى طول رقدتى .

علا صوتها بالانفعال :

- لا تعد إلى هذا الكلام !

لاحظنا أن ذاكرته بدأت تخلط الأمور . تشابكت فى ذهنه

رؤى وتصورات.

يخشى أن يقيده المرض فى السرير، لايتيح له الحركة، ولا الذهاب إلى المرصد، ولا الجلوس إلى أصدقائه فى مقهى الحرية على ناصية شارعى عرفان والرصافة. وكان يؤلمه أن رقاده فى السرير أساء إلى الهيبة التى كانت مظهره. ويعتز بها.

- ٤ -

بدا أن أبى استعاد الكثير من عافيته. يسأل، ويجيب، ويناقش، ويطلب ما كان يرفضه مما تقدمه له أمى.

حاول أن يقوم من السرير، يذهب إلى دورة المياه ويعود. بدت حركته ثقيلة. مد أخى هشام يده ليعينه على الوقوف. سار ببطء ثلاث خطوات، ثم أومأ برأسه لنساعده.

لم يعد يتمكن من القيام من السرير دون مساعدة. لا يمشى على قدميه، يشير، فأسند إبطه على كتفى.

كانت أمى تحلق له شعره، تقص أظافره، تبدل ثيابه، تغسل يديه، تمسح بشرته بالكولونيا. تحرص - فى كل يوم - على استبدال ملاءة السرير. فطنت إلى رائحة البول التى يخلفها.

- ٥ -

عاودت الأزمة أبى، وخلفت فى جسده شللاً نصفيًا.

قال الطبيب:

- فرصته فى الحياة كبيرة، لكنه لن يعود إلى العمل.

قالت :

- هو لم يبلغ سن المعاش..

- لاشأن للمرض بالعمر..

- هل يظل فى البيت ؟

سرى فى صوتها إشفاق :

- دعواتكم له بالشفاء.

بدأ - بكلمات متقطعة وغير مفهومة - يطلبنا بلا مناسبة، مجرد أن نجلس إلى جواره، يرفض أن نذهب إلى أعمالنا.

نلاحظ تلعثمه، بحثه - بصعوبة - عن الكلمات، وتكوين العبارات. تبدو عصية على النطق، تتحول إلى حروف ملتوية، مبعثرة، يصعب فهمها. لايتوقف عن الحديث بجمل ناقصة، ومبتورة، وخالية من المعنى، ما يشبه الكلمات المتقاطعة، نحاول وصلها وفهم ماتعنيه. ربما تساقطت الحروف من منتصف الكلمات، فيغيب المعنى. نصل ما يقوله بتعبيرات الملامح واليدين، نسد - بالتصور - ثغرات الغموض، نشكل ما نتوقع أنه الرد الكامل.

تحدث عن صفارات الإنذار التى تكاد أصواتها تثقب أذنيه، رغم أنها لا تبدو فى ملامح من حوله.

لطول ما أنصتت أمى إلى كلماته، كانت ترتب ما قاله بما يسهل علينا فهمه.

كانت تأخذه الأحلام والكوابيس، ترافقها كلمات غير

مترابطة، وصرخات. تهزه أمى حتى يصحو، ينتفض، يتلفت بعينين مذعورتين، كأنه انتشل من الغرق، أو من داخل بئر.

لاحظنا أنه يتكلف الإِصغاء. يهز رأسه دلالة المتابعة، وإِن شرد فيما لا نتبينه.

همس بإِحساس العجز عندما وضع يده على ركبته. يحاول النهوض. بدا أن العجز هو ما يثيره، أن يظل فى الفراش بلا حركة. يريد أن يتكلم، يفتح شفتيه، ويهم بالكلام، فلا يستطيع، يغلبه العجز. كأنه فقد النطق. يتجه بنظراته إِلى الناحية المقابلة، حتى لا نرى التماع الدمع فى عينيه.

– ٦ –

وضع أبى اهتمامه فى متابعة أحداث فيلم التليفزيون. بدا أن مشاهد المعارك اجتذبته، استغرقته تماماً.

اعتدت التردد على محل أفلام الفيديو القريب. أختار أفلام الحروب والمعارك، يتابع أبى أحداثها. يبين اهتمامه فى التماع عينيه، وتململ جلسته.

لم يعد يشغله سوى أن يشاهد الأفلام التى نضعها فى الفيديو.

– ٧ –

قدمت أمى من المطبخ بكوب، تقلب فيه مشروباً داكناً. واصلت التقليب وهى تتمتم بآيات من القرآن وأدعية.

مالت على أبى. لفت راحتها حول رأسه، وساعدته على

ارتشافها، حتى فرغت الكوب تمامًا.

قالت أمى:

- بالشفاء إن شاء الله.

تمتمت بأدعية، وهى تطمئن إلى استقرار أبى فى موضعه. سحبت اللحاف إلى عنقه، وأومأت لنا بجانب عينها كى نخلى الحجرة.

تكرر جلوس أمى إلى نسوة يرتدين السواد، يتهامسن حول ما ينبغى فعله، تنصت أمى إلى ماينصحن به، وتكتب - فى ورقة صغيرة - ملاحظات وأرقام وخطوات متوالية.

تزداد شدة الحالة. يكتفى بالصراخ. تهمل أمى الهمسات المتنبئة: أمامه وقت قليل ليرحل. تملأ حجرات الشقة بالحركة، والانشغال بالنظافة، والترتيب، وإبداء الملاحظات، والغضب من التصرفات التى تضايقها.

- ٨ -

رفضت أمى نصيحة الطبيب أن تقيد أبى فى السرير - أثناء الليل - حتى لا يتكرر سقوطه إن حاول الذهاب بمفرده إلى الحمام.

تحدثت عن تأثير الفعل على أبى.

نطق وجه أمى بالذهول حين عرض أخى رأفت أن يودع أبانا دارًا للمسنين:

- حتى لو كانت الدار التى سيذهب إليها هى الجنة، فلا

أتصور أنه يترك بيته !.

حدست أنها تتكلف الصرامة، وأن الضيق الذى تظهره ليس من طبيعتها، لكنها تشفق على أبى من الظروف التى يعانيها.

- ٩ -

شرعت أصابعها فى وجهه، تعيب عليه شكواه المستمرة مما لا تفهمه. تعطيه الطعام حين يشير إلى فمه، تقدم له الدواء فى المواعيد التى يحددها الطبيب، تفتح التليفزيون أمامه لتسليه، أو تدير مؤشر الراديو على محطة القرآن، ربما تهدأ نفسه.

سقطت يدا أمى إلى جانبها، حين تبينت الخوف فى عينيه، بعد أن شوحت له بالغضب. كان صراخه قد علا، وتقلصت عضلات وجهه، وانفرجت شفتاه، وانطبقتا، وتطوح ذراعاه بلا معنى محدد.

عجزت أمى عن فهم معنى التصرف، فبادلته الصراخ، وشوحت بيدها. أطلت من عينيه نظرة دامعة. نطقت العينان بما أخفق لسانه فى التعبير عنه.

رأيت الخوف - للمرة الأولى - فى عينى أبى. غابت النظرة الصارمة، الملتمعة. حل - بدلاً منها - خوف حقيقى - كأن أمى تهدده بما لا قبل له على مواجهته، كأنه يواجه الموت.

قالت أمى:

- لم أتصور أنى سأغضبه.

قال رأفت:

- ربما خشى إغضابك.

وهى تنتزع الكلمات:

- أنت تزيد حزنى.

اجتذبتنى - فى الأيام التالية - نظرات الشرود فى عينى أمى. كأنها تشدهما إلى ما ترياه وحدهما، ولانراه.

- ١٠ -

لاحظنا خوف أبى من الظلام. لم يكن يخافه من قبل، ولايضيق به. كانت الستائر البنية السميكة تضفى على الحجرة مايقرب من الظلمة.

ملامح أمى الحزينة، الخائفة، نطقت بما كتمته فى نفسها. عرفت أن أبى يرقد فى انتظار النهاية.

كسا وجهها جمود غريب وهى تفرق بين الحياة والموت والبين بين، إما أن نعيش حياتنا، أو نموت. إذا طال البقاء على حافة الموت، فمن الأفضل - إن لم يأت الموت - أن نذهب نحن إليه، أو ندفع بمن يهمنا - ونعانى ظروفه - إلى النهاية التى تنتظره، تنتظرنا جميعًا.

أدركت أن السكينة التى تبدو عليها، تصدر عن اليأس، مواجهة ما لا حيلة لها فيه.

- ١١ -

حل على نافذة حجرة أبى طائر أسود، علا صوته بما يشبه الصراخ.

رمق أبى الطائر بنظرة رافضة. رفع الغطاء عن جسده الضئيل، وعينيه الباهتتين، وفمه الذى ارتفع بكلمات متلاحقة.

تبدل أبى إلى ما لم أتبينه جيداً، وإن بدا عفياً. تصاعد حتى لامس السقف. انحلت عقدة لسانه، فأخذ صوته نبرة إلقاء الأوامر. علت التنبيهات والتحذيرات، وعبارات اللوم والتوبيخ. امتلأت الحجرة بالنداءات، والصيحات، وطلقات الرصاص، وضربات السيوف، والرءوس المتطايرة، وإعلان بونابرت: جئت مسلماً، واستغاثة محمد كريم المتذللة: اشترونى يا مسلمين، وهتاف المتظاهرين وراء النديم: اللايحة، اللايحة.. مرفوضة مرفوضة، وقذائف الأسطول الإنجليزى المنهمرة على المرصد، وعلى قلعة قايتباى، وكوم الدكة، وكل ارتفاع فى المدينة، وصفارات الإنذار، والكشافات، والطائرات، وامتدادات الأفق، والبواخر الراسية، وأرصفة الميناء، والورش، والمخازن، والحاويات، والمدينة - فى أسفل - متلاصقة البيوت والشوارع والميادين، يحيط بها البحر من معظم الجوانب.

هدأ أبى. حل صمت على شفتيه، وعلى كل ملامحه، وسكن جسده.

الحصار

حين رن جرس الباب ، فتحت بتلقائية . لم أتصور وقفتكم المهللة ، وقول ناشد صبرى فى لهجة متسائلة :

– لاتقل إنك لم تعرف بعودتنا إلى القهوة !

استطرد محيى الصبروتى فى نبرة محرضة :

– لماذا لا تعود إلى أصدقائك ؟

ظللتم واقفين أمام الباب ، تكتفون بنظرات صامتة ، تحرض أن أدعوكم للدخول .

كنت قد رسوت على فكرة أنكم لستم فى حياتى ، لا جلسات فى قهوة فاروق ، ولا أداء للصلاة فى على تمراز ، ولا جولات فى شوارع وسط البلد .

قالت أمى ، بعد أن رويت لها ماحدث :

- الحمد لله على سلامتك.

فطنت إلى أنها كتمت خيبة الأمل فى أنى قد حصلت - دونكم - على السلامة.

بعد أن غيبتم فى الأماكن التى لا أعرفها، تبدلت الحياة تمامًا، تبدلت حياتى تمامًا. تمازج السأم والملل والقلق والخوف والميل إلى العزلة. صداقتى لكم تضعنى فى دائرة الشك والمؤاخذة، وإن داخلنى شعور بأن هناك ما أفتقده، ما يغيب عن حياتى، ولا أعرف كيف أستعيده. تمنيت أن أكون وحدى فى هذا العالم، لا أهل ولا أصدقاء ولا زملاء عمل ولا جيران. يشغلنى تحويل نظراتى إلى جهة لا أواجه فيها نظرات التساؤل، أو الإشفاق، أو الاتهام.

عانيت تحول النظرات، وتسلل النظرات المتسائلة والرافضة والغاضبة، أشعر بها من وراء أخصة النوافذ، وخلف الأبواب المواربة، وداخل الدكاكين والمقاهى، وفى الأركان المظلمة.

ربما صحوت على التألم من توالى الضربات على جسدى، وتعالى الأوامر والصيحات. تنتزعنى الأيدى، تقذف بى من النافذة، تدفعنى خارج الشقة، تلاحق - بعبارات متشفية - تدحرج جسدى على درجات السلم. قد تضعنى لصق الجدار، وتوجه لى من الضربات ما لاقبل لى باحتماله.

تصورت فى الابتعاد عن ا لأماكن ما يبقى لنفسى استقرارها. ما مضى كأنه لم يكن، كأنه لم تنشأ الصداقة،

وما لحقها من جلسات ومناقشات، وأخذ ورد، وأصوات عالية، وهمسات، وتصرفات - لم أشارك فيها - مضت بكم إلى داخل الأسوار، وبقيت وحدى.

بدا العالم من حولى مغلقا، لانافذة أطل منها، باختيارى، أو أن ذلك ما فرضته الظروف.

ضايقتنى نبرة أمى المتحسرة:

- أرى أن ما تفر منه موجود فى داخلك.

غالبت شعورى بالخوف. تملكتني لا مبالاة. لم أعد أتلفت كثيرا، ولا يشغلنى التوقع.

لما قال بائع الصحف أول شارع الميدان: ربنا يطمنا عليكم، أدركت أنه يقصدنا، يقصد مجموعة الأصدقاء الذين اختفوا إلا واحدا، هو أنا. أنتظر - فى اللحظة التالية - قوله: أين ذهب أصحابك؟... ربما أضافت النظرة المتسائلة توجساً: ماذا فعلت كى يختفى أصدقاؤك؟

ظلت الأسئلة تتقافز أمامى، تحزننى وتؤلمنى: لماذا ضمكم المعتقل، وبقيت وحدى خارجه؟ لماذا فصلتم من وظائفكم، بينما ظللت على حياتى بين البيت والعمل، وإن ابتعدت عن الأماكن التى اعتدنا اللقاء فيها. لم أحاول مناقشة الأمر وإن كان هو الخوف من المتابعة، أم استعادة الذكريات، وما انتهت إليه من ظروف قاسية.

الوحدة هى ما كنت أشعر به، وأنا خارج المعتقل، وأنتم

داخله. أسير فى الشوارع بمفردى. أخرج من البيت إلى العمل وأعود. أخاف مجرد التصور أنى أعيش الحياة التى كانت مفرداتها تتناثر فى مناقشاتنا. السجن، المعتقل، التعذيب، التحقيق، الاعتراف، معاناة ما يبدو قاسيًا.

أغمض عينى، وأهز رأسى برفض التصور.

لم أعد أجلس على المقهى، أشعر أنى مراقب، وأن كل ماحولى مراقب كذلك: الأرصفة والأبواب والأسطح والمقاهى والدكاكين والعربات المهملة والسيارات الواقفة والكلمات والهمسات. أتوقع النظرات الراصدة، المتأملة. لا أشعر بالحر ولا البرد، أهمل حتى سقوط المطر، لا أحتمى بالتندات القماشية، أو مداخل البيوت.

تبدو الطرق أمامى متشابكة، ومختلطة، ومتقاطعة.

لا أدرى أى طريق أسلك؟

لا أعرف ما يجب أن أفعله تمامًا. أكتفى بالتحديق فى كل ما تصادفه عيناى، فى كل الاتجاهات. أحاول التأمل والفهم وتفسير المعانى.

أول ما أحرص عليه، عندما أدخل مكانًا، هو أن أتأكد من عدم وجود من يثير الشكوك، ذلك المجهول الذى لا أعرف من هو، يرقبنى، يتابعنى، من مكان خفى. لا أراه، لكننى أشعر به، أتوقع أن يطالعنى فى لحظة مفاجئة، قد لا أكون أعددت نفسى لها. أفكر فى مايقوله لى، وماينبغى أن أضمنه ردى.

إذا رأيت من أتشكك فى ملامحه، وأنه - لابد - يعرفنى مثلاً أعرفه، أميل إلى شارع جانبى، أو مدخل بناية قريبة، أحاول التوارى عن نظراته المتلفتة.

ما أكاد أسير خطوات، حتى ألتفت حولى بعفوية. أتوقع من يفاجئنى بنظرة التساؤل، أو التشكك، أو العداء. تسيطر على مشاعرى وتصرفاتى توقعات غير محددة.

لمحت شبحا يتبعنى فى الظلمة. سرت فى جسدى رعشة. لم أتحقق من ملامحه، ولا إن كان يطاردنى.

نظرت إلى الخلف.

رأيته واقفا على ناصية الشارع، تتبعنى نظراته. بالكاد، رأيت ظهره وهو يختفى فى ثنية الشارع.

عدت إلى الجلوس على قهوة المطرى المطلة على الميناء الشرقية.

عدلت عن الجلوس على الطاولة نفسها التى ألفنا الجلوس عليها. توقعت النظرات المتابعة. اخترت طاولة تطل على ناصيتى طريق الكورنيش وشارع إسماعيل صبرى. يمكننى - من موضعى - أن أرى الداخل والخارج.

أردت أن أغالب ارتباكى. تشاغلت بتصفح جريدة، وتأمل أفق البحر.

التفت - بجانب عينى - إلى شارع إسماعيل صبرى. رأيت نظرات الرجل ترمقنى.

فرد جريدة أمام عينيه كأنه يقرؤها. لكننى تبينت ملاحقة نظراته لى.

ظلت النظرات ثابتة، تثقب رأسى، تخترقه. لن أدعه يعتقلنى. يقتادنى إلى حيث أعرف ولا أعرف. المكان ذو الأسوار العالية والأسلاك الشائكة والزنازين والتعذيب وانتزاع الاعترافات، يبدو شاحبا ومختلط الملامح فى تعدد الروايات. يصعب أن أكون مما لم أره صورة محددة، واضحة.

اضطررت إلى معاودة تأمل أفق البحر.

أستعيد نصيحة ناشد صبرى: لطف من آرائك، وتخل عن الانفعال.

حين امتد النقاش، واختلطت الأسئلة والأجوبة، والملاحظات، والتفاصيل، والآراء المحتجة، والرافضة، والمؤيدة، واللحظات الوامضة، وضع حيدر مهنا يده على فهمى، وهمس:

- أنت لا تكلم صمًّا.. لماذا ترفع صوتك؟

هل وشى صوتى بما كنتم تحرصون على كتمه؟ هل أذاعت حدَّتى السر؟ وهل يغفر لى ناشد؟ هل تغفرون لى؟

انتفضت لاحتكاك بساقى. جرى الكلب من تحتى إلى شارع جانبى. تظاهرت بالتلفت ناحيته لأعرف ما إذا كان ثمة من يراقبنى.

أتوقع من يشير بإصبعه ناحيتى، أو يسدد قبضته: هذا أنت.

أمشى من البيت وإليه، عبر الشوارع الجانبية، لأتحاشى الأعين المتتابعة أتحاشى الشوارع الطويلة. والواسعة، ومقاهى النواصى. أخترق الشوارع الجانبية والحوارى. أغير اتجاه سيرى كى يظن من يتبعنى أن هذا هو الاتجاه الذى أمضى إليه.

لم يكن توقعى للنظرات المطاردة وحدها، تشغلنى النظرات المتسائلة من رواد المقهى، ومن كانوا يروننا جماعة: لماذا ذهب أصدقاؤه، وظل هو؟!

يؤلمنى تصور الحكايات التى تديننى بما لا حيلة لى فيه؟ لماذا غيبتم وراء الأسوار، وأفلت وحدى؟ متى تعود جلساتنا على المقاهى، سيرنا المتباطئ فى الشوارع، وقوفنا على سور الكورنيش، اختراقنا زحام شارع الميدان وزنقة الستات وسوق الخيط وميدان النصر. تبدأ أحاديثنا ولا تنتهى، إلا عندما نتبادل التحية آخر الليل، ونميل إلى داخل البيوت، أو إلى الشوارع الجانبية.

تبينت أن معظم نظراتى إلى أمام، أو إلى أسفل، لا أتلفت. أخشى النظرات المتسائلة، والمتشككة، وما تحمل الإدانة.

لم أعد أجلس فى القهوة منذ اتجه الرجل - فى موضعه المعتاد المطل على شارع محمد كريم - بنظرة طويلة ناحيتى، كأنه يسأل عن سر جلستى المنفردة وغيابكم.

دربت نفسى على الحذر، على ملاحظة النظرات إن كانت

ترمقنى وهى فى موضعها، أم تحاول اللحاق بى. أتوقع يداً على كتفى، وكلمات تدعونى إلى المرافقة فى صمت.

إيقاع الخطوات يتبعنى. يترك مسافة بينى وبينه. يحسب اندفاعه وتمهله، أحاول تضليل من لا أراه بالميل إلى شارع جانبى، واختراق ما يصادفنى من تقاطعات الشوارع الضيقة والحوارى والأزقة. أمشى كالهرولة، أو كالجرى. قد أدخل بيتا لأوقف المطاردة، ثم أترك موضع الاختفاء حين تبتعد الأعين المتابعة. أحيا بما فى داخلى من حنين، ومناقشات، وملاحظات، وعبارات كاملة، ومبتورة. تهبنى ما لا أستطيع أن أسميه، ما أعجز عن البوح به.

أكرر السؤال حين يرتفع صوت جرس الباب: من؟

فى ومضة، تضيق المسافات وتتسع، مئات الصور التى أتذكرها، ويصنعها الخيال. أعرف مايجرى لمن يستدعون للتحقيق، أو للاعتقال، دقائق وتعود. يهونون الأمر، فلا تحتاج إلى ما تأخذه معك. أعرف أنى قد أواجه لحظات قاسية، بالتتبع أو بالمصادفة. لم أضع تصورا لتلك اللحظات، وإن عرفت أنها المدخل للحياة وراء الأسوار. تتوالى السحن والأسئلة والحجرات الواسعة والخالية، والإضاءة العالية، والزنازين التى تفوح منها رائحة العطن، وصرخات التعذيب. أعرف أنه لن يشغلهم ما إذا كنت قد ارتكبت ما أستحق عنه العقاب. التصرف يسبق التفكير.

أفتح الباب بيد مترددة. أطمئن إلى الواقف، وأنه ليس من هؤلاء الذين يأمرونني بمرافقتهم. أداري ارتباكي بعلو الصوت وانخفاضه، والكلمات المعتذرة، أو التي لا تعني شيئا.

أرهف السمع قبل أن أدير المفتاح في الباب. أتبين ما إذا كان ثمة أصوات لمن ينتظرونني في الداخل. أتهيأ للدخول، أو للقفز على السلم إذا طالعني الخطر.

أيقظني - ليلة - صوت طرقات على الباب. ترددت يدي في اقترابها من المزلاج، وأنا ألتفت ناحية حجرة أبوي المغلقة.

طالعتني الظلمة، وظل الصمت سادرا، يعمقه ارتطام نافذة السلم بهبات الهواء القادمة من البحر.

لاحظت أني أفضل البقاء في البيت. لا أتركه إلا لضرورة. أتردد حتى في الوقوف وراء النافذة. أتوقع النظرات المتشككة. حتى أصص الورد التي كنت أتسلى بريها، تركت الأمر لأمي، هي التي تعنى بها، بينما أكتفي بالتذكير حتى لاتهملها.

فكرت في أن أحصل على إجازة، وألزم البيت. همس أبي بتحذير من أن يكون غيابي عن العمل تنبيها بأني أفر مما أخشى افتضاحه.

حرصت أن أذهب - كل يوم - إلى العمل.

أظل - عقب عودتى - داخل الشقة. لا أغادرها معظم أوقات النهار.

التوقع يفرض الحرص أن أرتدى ثياب الخروج كاملة، لا أستبدل بها ثياب البيت. أعانى التوقع بأن يطرقوا باب الشقة. تتوالى الطرقات، حتى أفتح الباب، أو يحطمونه. يطوفون الشقة، يفتشون الحجرات والأركان والزوايا، يقلبون الأثاث، يفتحون الضلف والأدراج، يمزقون المراتب والوسائد، لايأبهون حتى بالخوف الذى لابد أن يبين فى كلمات أمى وأبى، وفى تصرفاتهما.

أهبط إلى الطريق - فى أحيان قليلة - بعد أن يحل الظلام. تقل حركة المرور، وتغلق الأبواب والنوافذ، وتشحب المرئيات. أحاول التخلص من الخوف بالسير فى الشوارع المظلمة.

زاد ارتباكى بخروجكم من المعتقل. عودة الجلسة المسائية، كل اثنين، فى قهوة المطرى.

ألمح قهوة المطرى فى قدومى من شارع محمد كريم إلى ميدان (أبوالعباس).

أميل - قبل أن أصل إليه - فى شارع جانبى. أخشى استعادة ماكان إذا حاولت مجرد السيرة أمام القهوة. التقطت عيناى - من بعد - ظهر سامح الجلاد، وتشويحة حيدر مهنا، قبل أن أميل من الشارع الجانبى، يتملكنى العجز، فلا أمضى نحو

القهوة، والالتقاء بكم، كأنه الشعور بالذنب.

تطلعت إِلى الواقفين الثلاثة بعينين تبحثان - ربما - عن تغير الملامح الذى أحدثه مضى ثمانى سنوات.

شملنى ارتباك.

لم أعرف إِن كان ينبغى أن أفسح الطريق لتدخلوا، أم أنزل معكم إِلى حيث تجلسون؟

مساحة ظل

أشاح أمين الشرطة ذو الشارب الأصفر بيده، دلالة عدم الرضا..

- أنت تداعبه، اضرب جيدا..

بدا الشاب ذو القميص الأسود والبنطلون الجينز - فى وقفته - عاجزا عن حفظ توازنه.

اهتز الشاب لقوة الصفعة التى فاجأه بها الرجل ذو الجلباب الأبيض. حاول أن يتماسك، ثم سقط، زحف على مقعدته إلى الوراء، حتى لا تصيبه الركلات المتلاحقة..

وقف الرجل، تنهد كمن يسترد أنفاسه..

قال أمين الشرطة:

- هذا تدليل.. اضربه..

تهيأ الرجل حتى استعاد الشاب وقفته. رفع الرجل قبضته. هوى بها على رأس الشاب بكل قوته. تفادى الشاب الضربة، لكن الرجل مال بجسده إلى الوراء، ووجه ضربة ثانية، مفاجئة - بالجنب - إلى بطن الشاب. لم يستطع تفاديها. تأوه، وترنح، وسقط على ركبتيه.

عاجله الرجل بركلات متلاحقة، تلقاها فى تكومه على الأرض، وهو يحيط رأسه بذراعيه.

نظر أمين الشرطة ذو الشارب الأصفر إلى أمين الشرطة الممتلىء الجسد:

- ما رأيك؟

قال الممتلئ الجسد:

- هل تساوى هذه الضربات قيمة الغرامة؟!

كان أمينا الشرطة يستندان إلى السور الحديدى، تصل الحديقة الصغيرة بينه وبين جامع الفتح. الضوء السابق من المئذنة يمتزج بأضواء الميدان الواسع. قل زحام المارة والسيارات مع تقدم الليل، وإن شكلت لمة الناس ما يشبه نصف الدائرة، خارج السور الحديدي، المتصل بأسوار حديدية أخرى، متصلة، فى الشارع والميدان. يتأملون مايحدث، ويتبادلون النظرات.

رمق أمين الشرطة الممتلئ الجسد ما بدا تحركا فى نصف الدائرة. اهتزت الأجساد الواقفة، دون أن تغير موضعها.

لم يبد على أمين الشرطة انعكاس لتحرك لمة الناس الثابتة، ما يشبه الارتجافة فى الجسد الساكن، وإن ارتسم على ملامحه اطمئنان لغياب التوقع.

أشار أمين الشرطة ذو الشارب الأصفر إلى الرجل ذى الجلباب الأبيض.

اندفع الرجل نحو الشاب ذى القميص والبنطلون.

ضرب كتفه بآخر قوته..

دفعته الضربة إلى الوراء، حتى اصطدم بسور جامع الفتح. رفع يديه فوق رأسه، يتقى الضربات.

توالت الضربات قاسية، كأنه يريد قتله. بدا أن قدمى الشاب تخذلانه، وأنه يخور، ويوشك على التهاوى.

كان الشاب راقدا على الأرض. نهض نصف قومة. تحسس ساقية ليرى - ربما - ما إذا كان يستطيع أن يقف عليهما.

بدا كأنه استعاد عافيته فى محاولاته النهوض - ثانية - على ركبتيه.

أشار أمين الشرطة ذو الشارب الأصفر إلى الرجل. لحق الشاب بركلة فى بطنه. تكوم - ثانية - على نفسه. تباطأ تنفس، وخفت.

ظل الشاب مقعى على الأرض، كأنه لن يقوم، كأنه مات.

مد أمين الشرطة الممتلئ يده برخصتى السيارة والقيادة.

- خذه من هنا.

مال الرجل ذو الجلباب على الشاب ذى القميص والبنطلون. حاول مساعدته على القيام. تساند الشاب على ذراعه حتى تمالك نفسه، ووقف. أمسك الشاب بساعده، ثم استند على كتفه، أحاط الرجل بالساعد الآخر خصر الشاب. حاكاه فى خطواته البطيئة، واخترقا لمة الناس.

بلغ الرجل والشاب سيارة النقل الصغيرة جوار الرصيف. فتح الرجل باب السيارة. رفع الشاب على الكرسى الأمامى. احتضنه بنظرة مشفقة، ثم أدار السيارة...

وانطلق.

الهدف

قال المعلم الشيخ :

- إذا أردت أن تقتل خصمك فلا تخطىء الهدف . .

ولجأ إلى التعبير بيديه :

- إذا ضربت ، فوجه ضربتك سريعة ، ومباشرة ، إلى الهدف تماما ، فى منتصف الهدف حتى تصيبه ، أو بالقرب منه ، المهم ألا تبتعد الضربة عن الهدف . ضع فى بالك أنك ستفوز بحياتك ، وبموت الخصم ، إذا بلغت الضربة هدفها . العكس ما يحدث إن أخطأت الضربة الهدف . سيقابل ضربتك الفاشلة بضربة تعرف طريقها جيدا .

تخلى الشاب عن اعتزامه التصويب فى الهدف . عاد إلى أسلحته وأدواته ، وقرأ الكتب ، وجلس إلى من يفوقونه

خبرة، وأطال التدرب.

لما قبل النزال، كان قد اطمأن إِلى أن ضربته ستصيب هدفها.

صدى البوح

أطل من النافذة الحديدية، المطلة على طريق القطار، آخر ما تأذن لعينى أن تنظر منه إلى الطريق، وتنظر إلى داخل البيت من شراعة الباب.

القضبان تضوى فى ألق الشمس. الرؤية بلا أفق محدد. تتصاعد من بين الأسطح المتجاورة أبراج كنائس ومآذن ومداخن وبنايات عالية وأطباق فضائيات فوق الأسطح، أذان العصر يختلط بصفير القطارات فى محطة دمنهور القريبة. أتابع القطار فى اندفاعه المتوازى إلى جانب عربات النقل والأوتوبيسات والسيارات الصغيرة والدراجات والموتوسيكلات وعربات الكارو. أميز - عن بعد - برج كنيسة، وثلاث مآذن، اثنتين فى ارتفاع البنايات المجاورة،

والثالثة هى الأعلى فى كل ما يبلغه النظر . حتى البشر ، أراهم من بعيد ، يتحركون فوق الأسطح ، يطلون من النوافذ ، يسيرون فى الشوارع ، القسمات شاحبة أو غائبة . أستكمل الملامح بالتذكر ، أو بالتصور .

أنت بلا وظيفة محددة ، لكنك تصل فى الموعد تماما . أعرف مجيئك بصرير المفتاح فى الباب الخارجى ، وصرير الباب فى فتحه وإغلاقه . تتناهى الأصوات - مكتومة - من وراء الجدار الفاصل بين الشقتين ، وقع خطاك - عبر الجدار - فى الشقة الملاصقة ، صوت تحرك قطع الأثاث ، واستعمال أدوات المطبخ . أتصور خطواتك بين الصالة وحجرة النوم والحمام والمطبخ . تنزع ملابس الخروج ، وترتدى البيجاما - مكوية كما تأمر - ثم تجلس إلى المائدة ، ترفع الغطاء البلاستيك ، وتبدأ فى تناول الطعام .

هذه هى الصورة كما اعتدت رؤيتها ، وكما أتخيلها الآن .

لا أذكر متى اكتفيت بتخيل حياتك داخل الشقة التى يفصل بينى وبينها جدار ، وإن خضعت للتحذيرات من أن أتنقل بين البابين المتجاورين . لا أذكر حتى متى بدأت حياتنا فى التغير ، فتحولت إلى الجحيم الذى أعانيه . الملاحظات المتناثرة تغطت بالعبارات القاسية والشتائم .

يترامى صوت فتح الباب الخارجى . أعرف أنك تغلقه عندما تنزل المدينة . أتابع وقع قدميك- يرافقه سعال ونحنحات -

على السلم.

كأنك أعددت الشتائم وأنت تصعد السلم، وأنت تجالس أصدقاءك فى النادى الرياضى، أو على القهوة المجاورة لميدان المحطة، وأنت تخترق الشوارع، وأنت تنتقل بين مزارعك القريبة من دمنهور.

يأتى - بعد لحظات - وقع خطوات العجوز عم منسى. يضع ما يحمله أمام الباب، ويضغط الجرس. يعد ما كنت قد طلبته فى اليوم السابق، ويسجل - فى ورقة صغيرة - ما أطلبه لليوم التالى.

هو الرجل الوحيد الذى تأذن لى مقابلته، والتكلم معه، ما أصبح صلتى بالدنيا البعيدة عن البيت.

صار الانتظار هو كل ما أمتلكه. أنتظر عودتك إلى البيت، أنتظر توقعات الأيام التالية، أنتظر دائما.

يزيد شعورى بالوحدة، فأغنى، مجرد كلمات لا أتبينها، أضمنها ألحانا غير مترابطة، لايشغلنى المعنى بقدر ما أحرص أن أزيل الوحشة من حولى.

لم أكن رأيتك قبل ذلك المساء الذى زرتنا فيه، ملامحك الهادئة، وصمتك، وغياب الأسئلة، والردود المختصرة.. ذلك كله أحاطنى بالطمأنينة، وأن الخير هو مايجب أن أتوقعه.

لا أعثر فى عينيك، ولا فى كلماتك أو تصرفاتك، ما يباعد المعنى الذى أريده. لا يبدر مايدفعنى إلى مجرد التوجس.

أسعدنى قولك إن كل ماترغبه أن تعيش حياة زوجية هادئة.

لا أذكر متى بدأ تجاهلك يثيرنى، يلغينى تماما. لا تنظر ناحيتى، ولاترد على أسئلتى، كأنك تستعذب غرس الألم فى داخلى.

فاجأنى إنسان آخر غير الذى كنت أعرفه من قبل. غابت النبرة الهادئة، والعبارات المجاملة، والأمنيات التى تجعل السعادة فى قبضة اليد.

أعرف أن الأزواج يتبدلون بعد فترة من الزواج. لم أتصور أن التبدل يحدث فى الأيام الأولى، النبرة الساخطة، والملاحظات التى لاتنتهى.

كنت أقاوم الحزن ولا أبكى، فلا ينكشف ضعفى، طال ترددى فى البوح، فى الإفصاح عما بداخلى.

قالت أمى إن تقارب الطباع يحتاج وقتا، ونصحنى أبى بالصبر، لكن الحائط المسدود ظل قائما.

أدركت أن النظرة الهادئة، المسالمة، تخفى بركانا يثور فى أوقات تعرفها أو - ربما - لاتعرفها. يفاجئك بظهور الحمم التى تجيد كتمها. تعجز - فى لحظة ما - عن المقاومة. ينبثق الدم فى الجرح الذى لم يندمل.

تركت لك جسدى بلا إرادة، ودون مقاومة، كأنى دمية تعبث بها على النحو الذى تراه.

قلت:

- أنت تقيمين فى بيتى، وتنفقين من مالى.. لا تتصرفى بما يغضبنى!

- أنا لم أفعل شيئا!

- رد لايخلو من سوء أدب. كأنى أدينك بغير الحقيقة!

تراقص أمام عينى ما لا يحصى من علامات الاستفهام والأسئلة، وإن أدركت أنك وضعت بيننا حاجزا يصعب اجتيازه، لم أعد أعرف ما يتعين على فعله.

فى نفاد حيلة:

- ماذا تريد أن أفعل؟

- لا شىء، لاتفعلى إلا ما أطلبه منك..

ونقرت بإصبعك على جبهتى:

- أريحى ذهنك، واتركى الأمور لى!

أحسست بشىء يقف فى حلقى، يمنعنى من الكلام.

ألفت صمتى، وتسليمى بما يحدث، لا أناقش، ولا أبدى رأيا، ولا أهمس بملاحظة أو اعتراض، تلك مشيئتك، لا أتصور أنى أرفضها.

لم يعد ثمة مايثير اهتمامى، ولاتوقعى، ولاشعورى بالفرحة أو الحزن.

غاب حلمى القديم بأن أتزوج من أحبه، ويحبنى.

تحدث أبى عن اعتذاره برفض قطعة الأرض الصغيرة الملاصقة لزراعات آلت لك بالوراثة. قال إنها - منذ تقدم به العمر -

صارت ملكا لى ولإخوتى، ولم تعد ملكه.

أردت أن تضع يدك على الأرض كلها، تخضعها لسيطرتك، تحوزها بمفردك، تتصرف فى أمورها، لايشاركك أحد فى مساحات من الخضرة مترامية آلافاق.

لم تتصور - ربما - أن أبى يرفض عرضك، أو يرد كلمتك. تحدث عن قراريطه القليلة كأنها اللسان فى داخل فدادينك. اعتبرت رفض أبى تحديا. وأن العقاب هو ما يستحقه.

بدا أن ما يحرك تصرفاتك شهوة الثأر لما اعتبرته رفضا لمطلبك.

لماذا العقاب لى؟ لماذا أتحمل مسئولية ما لم أفعله؟

اختلطت فى داخلى - الرؤى والمشاعر والتوقعات. لم أعد أدرك سبب بقائى فى البيت، وما أعانيه.

ذلك المساء، عدت إلى البيت، وفتحت الشقة الملاصقة. حدست أنك اخترت الإقامة فيها. تأكد حدسى حين طلب عم منسى - وهو يدفع لى مفتاح الشقة - أن أؤدى فيها - فترة النهار - ما ينبغى على الزوجة. أسمع صرير الباب فى دخولك الشقة، ومغادرتك لها، أصلها بوقع قدميك فى صعودك ونزولك على السلم. أعرف أنك تعيش على إيراد الأرض، يريحك الكاتب- أحيانا- من الذهاب إليها يضع الإيراد في يدك، تنفقه في زياراتك الدائمة إلى الإسكندرية، وجلساتك فى المقاهى والنادى الرياضى وبيوت الأصدقاء.

أفعل ما ينبغى فعله، يغيب الفرق بين الحياة فى وجودك داخل الشقة، والحياة بمفردى، أستكين إلى حصار الصمت والعزلة.

لم أعد أستطيع مداراة ما أحياه. العائش فى الزنزانة يعرف موعد خروجه إلى الدنيا، الشقة السجن لا أتركها حتى لرؤية أهلى فى (أبو الريش)، كالأصداء الباهتة بدا الطريق من المحطة إلى البيت القريب من وابور النور. ألتقط مسميات: سيدى محمد الطودى، فول العاصى، مكتبة البلدية، سينما النجمة، قهوة الشاويش، شارع الصاغة، وابور النور، سكة الزراعية. تباعد الزمن، فلم أعد أتذكر ما يستعيده ذهنى.

قال أبى:

– لا حيلة لنا فهو زوجك!

وتغلف صوته بنبرة ناصحة:

– احرصى على بيتك.

صحت:

– هذا ليس بيتى!

وأشرت إلى الشقة الملاصقة:

– أنا أعمل خادمة عند من تزوجنى!

فى نبرة مستسلمة:

– لا عيب فى أن تخدم الزوجة زوجها!

شعرت بأنى وحيدة كما لم أكن فى أى وقت. أتعرف إلى

أوقات اليوم بعدد الدقات التى تعلو بها ساعة الحائط. أعد ما مضى، وأعد الساعات المتبقية على موعد ذهابى إلى النوم، أو المتبقية على بداية النهار. أفرق بين اهتزاز البيت بتأثير القطارات التى تخترق محطة دمنهور، دون أن تقف فيها، وعربات قطارات البضاعة فى تلاحق سيرها. تصورت أنك ربما ثقبت دوائر فى الجدار، لا أراها وإن كنت ترى منها كيف أعيش فى الشقة أتحرك. وأعد الطعام، وأجلس، وأنام، وأخلو إلى النافذة المطلة على الطريق.

هل أحيا فى هذه الشقة بالفعل؟ هل الحجرات والصالة والجدران أماكن حقيقية؟

فى زيارة أبى الأخيرة - مفتاح البيت فى جيبك فلايزورنى إلا برفقتك سخف تلميحى بالتصور:

- لست فى زنزانة.

علا صوتى:

- ما هى الزنزانة إذن؟!

فى لحظة ما، فطنت إلى أن ما أعانيه لن يستمر إلى ما لا نهاية. لن تظل حياتى على تلك الصورة حتى نهاية العمر. لاقيمة للحياة نفسها إن لم يكن للتوقعات معنى.

تساءلت فى الفراغ:

- هل أظل فى هذا البيت السجن؟

أردفت فى تساؤلى القلق:

- كيف أنهى مايحدث ؟

حين تفيق إلى نفسك - هذا تصورى - تحاول استعادة ما فات، يكون كل شيء قد انتهى، وأنك صرت غريبا عنى.

ماحدث، هل كان فى يقظة أم فى حلم؟ متى انبعث فى نفسى ما شعرت به من قوة، ولاكيف تصاعد ؟

حلت فى جسدى قوة غريبة لم أفهمها. تصورت أنى شببت على قدمى، وفردت صدرى. طالت قامتى حتى لامست السقف. غاب رأسى خارج المكان، فلم يعد إلا ما تحت الكتفين. تعالى صوت لم أعرف إن كان من داخلى أم من قوى تحيط بى، تحركنى، تدفعنى. أقول ما لم أتصور أنى أقوله. أواجه الشر فى تصرفاتك، أمد يدى، أنشب أظافرى فى عنقك وأعلى صدرك. أعرف أنك لن تستطيع مغالبتى.

لم أعد أطيق أن تكون النافذة هى وسيلة رؤيتى للمدينة والبيوت والشوارع وحركة الطريق. مشاعر متماوجة، تنفذ من قضبان النافذة إلى الفضاء، لا أتبينها، لايؤنسنى سوى الوحشة والفراغ، وإن ظلت ملامحك أمامى اليوم كله، ووجودك القاسى فى حياتى، لايغيب.

أنظر - من خلال الأعمدة الحديدية، الرفيعة، المتوازية، التفت - بعفوية اعتدتها - إلى شجرة الجهنمية تحت النافذة. أراها منذ أقمت فى الشقة، أتابع نمو أوراقها، تحط العصافير على الأغصان، تتقافز، ثم تنطلق.

أرقب تبدل أوقات اليوم، ما بين طلوع الصبح وإظلام الليل، الشمس والسحب والقمر والنجوم والنسائم وهبات الريح. قد يغيب صفو السماء وضوء القمر وراء السحب المتكاثفة. يغلب السواد على كل ما أراه.

أجاوز النافذة والبيوت والشوارع والبنايات والمآذن والأبراج والحدائق ودور السينما. أسلم على الجالسات والسائرات والواقفات فى أمكنة اختلطت ملامحها، أزور صديقاتى، يذكرننى بالأيام الفائتة والمدرسة وألعاب الشارع الخلفى قبل أن نلزم البيوت. أشاهد فى سينما البلدية - أبتسم بالتذكر - فيلم يوم من عمرى - أرافق أولاد عمتى نفوسة فى السير على السكة الزراعية.

أمضى إلى (أبوالريش)، أرقب أمى وهى تلقم الفرن أرغفة الخبز، أجالس أبى فى قعدته المعتادة أمام باب البيت، أحكى له ما أعانيه. النافذة الحديدية صلة وحيدة بينى وبين العالم من حولى، الثمن الذى أدفعه لما لا أفهمه.

أعيد التحديق فى أغصان الشجرة وأوراقها. فى داخلى أن أشكو ما أعانيه للشجرة الصاعدة من أسفل. أكلمها عن مشاعر العزلة والوحدة والظلم. ترد الشجرة على ما أقول، ولو بمجرد اهتزاز الأغصان وخشخشة الأوراق، دلالة الإنصات والفهم والمشاركة، لكن الأغصان والأوراق ظلت - لم أتوقع عكس هذا - ساكنة، صامتة.

لاحظت - ذات مساء - أنى أحدث الأغصان الطالعة بما أتبينه من مشاعر الضيق والحصار. داخلتنى رغبة فى البوح. لم أجد فى اهتزاز الأغصان والأوراق ما أتصوره ردا. أعرف أن الشجرة هى كذلك، وأنها لاتتكلم. لكننى أفتقد من أخاطبه، ما أخاطبه، أحدثه عن الظروف التى أعيشها. ولم أكن أتوقعها.

حديثى إلى الشجرة كان أقرب للنظر فى المرآة، فضفضة عما أعانيه وما يؤلم نفسى، لاتقتصر الكلمات على مايحدث بيننا، أستعيد صورة الحياة فى البيت المطل على شارع المحكمة، وأيام الدراسة، ومشاهدتى فيلم «أبى فوق الشجرة» فى سينما دمنهور، ومتابعتى لإنشاء دمنهور الجديدة، وسفرى - مع أبى - إلى الإسكندرية، ومرافقتى له إلى الغيط، يسأل ويوجه، ويبدى الملاحظات. نميل من نهاية (أبوالريش) إلى السكة الزراعية، يسبقنا الأتان بخطوات تعرف طريقها.

اطمأننت إلى الشجرة. تحرك الأغصان والأوراق، سكونها الشبيه بالإنصات والمتابعة.

لم ألحظ متى بدأت أغصان الشجرة الجافة فى استعادة عافيتها. تعاظمت الأغصان، ونمت أوراقها، وتكاثرت، واستبدلت الأوراق الخضراء بالصفراء، عشرات الأوراق الخضراء الصغيرة، علت، وتشعبت، حتى جاوزت النافذة.

حدست أنها غطت مساحة - لا أتبينها - فى واجة البيت.

تداخلت الأغصان فى القضبان الحديدية. غطتها تماما. صنعت ما يشبه الثقوب التى تأذن لنظراتى - بالكاد - أن تنفذ منها إِلى السماء، وامتداد البنايات وحركة الطريق. أحس براحة لملامسة الأوراق الخضراء العريضة. تلتمع - فى الصباح - بقطرات الندى، أتحسس برودتها بأصابعى.

ترامى - ذلك الصباح - ما يشبه الأزيز أو الصرير أو الاصطكاك. ظلت الفروع ترتفع، والأصوات تعلو. تداخلت الأغصان بالقضبان. التفت الأغصان حول القضبان، واجتذبتها. تعالى ما يشبه التكسر أو القرقعة. تحطمت قضبان النافذة، وتطايرت فى الفضاء الفسيح. اتسعت المسافة بين جانبى النافذة.

خلت الأرضية من ظل القضبان، وتدفقت أشعة الشمس فى الحجرة.

بكائية للزمن القديم

حين عدت من المدرسة، كانت أمى قد أغلقت حقيبة جلدية صغيرة، على ما خمنت أنه ثياب لها. وضعت الحقيبة على كتفها، وأمسكت بيد أختى الصغيرة.

قالت :

- ستصحبنى حنان إلى دمنهور، يومين ونعود.

قلت فى صوت هامس :

- أروح معك.

- لا تترك أباك بمفرده. قد يحتاج إليك.

ثم وهى تربت كتفى :

- كن ولدا طيبا، ولا تضايق أباك!

بدت الفكرة مخيفة..

هل أظل مع أبى فى البيت بمفردنا ؟ هل أعود من المدرسة ، ويعود أبى من الدكان ، فأواجه القامة الطويلة ، الممتلئة ، والصوت المرتفع ، والعينين النفاذتين ، والأصابع التى تكر حبات المسبحة ، والأوامر ، والنظرات المؤنبة ؟

كان خوفى من أبى يغلب ما عداه من مشاعر ، أوامره وسحنته الغاضبة ونظراته ، تجعل الخوف فى داخلى شعورا وحيدا . لا أناقش حبى له ، وما يعلو به صوته من ملاحظات وأوامر لاتنتهى .

أعرف - كما تهمس أمى متصعبة - أنه يتعب من أجلنا ، لم تكن أمى تخفى اعتزازها بأن أبى يغنيها عما قد يشغلها . هو وحده يفكر ، ويأخذ القرار ، ويعنى بالتنفيذ والمتابعة .

تقول لى :

- أين أبوك الآن من الرجل الذى كان يخافه الجميع ؟ !

تروى - بكلمات هامسة ، متفاخرة - عن اعتزال أبى مهنة الفتونة . فرض سيطرته على المنطقة ما بين سراى رأس التين وانحناءة الترام إلى شارع التتويج . اختار التقاعد فى الموعد الذى حدده ، ظل يعتز - إلى ما بعد اعتزاله - أنه مارس الفتونة للقوة التى وهبها الله له ، ولتأكيد المكانة . ابتعد عن السرقة والبلطجة وفرض الإتاوات وخوض الخناقات لحساب الغير . أحكم إغلاق نفسه ، فلا تتأثر بما يدور فى الحى من خناقات ، أهمل التعلق بالدنيا ، وعنى بالصلاة والصوم

والذكر والدعاء والتسابيح وتلاوة القرآن.

تهمس أمى:

- لم تتبدل أحواله إلا بعد أن تقدم لأبى.

يشى همسها بنبرة متفاخرة:

- اشترط عليه - كى يقبل زواجنا - أن يعتزل الفتونة!

صداقات أبى الجيدة، ورغبته فى حياة جديدة لايؤذى بتصرفاتها الناس، أتاحت له أن يفتح دكان البقالة المطل على ميدان (أبوالعباس). الحاجز الخشبى، فوقه رخامة تحتل معظم مساحة الواجهة، عدا منفذ صغير، سد بباب ذى مفصلات، يفضى إلى الداخل.

انسحب من ميادين بحرى وساحاته وشوارعه، وما يدور فيها من خناقات. غابت دنيا السيوف والسنج والخناجر والمطاوى والشم وقبضات الحديد والسلاسل الحديدية والزجاجات الفارغة والصرخات والأنين والبكاء والنشيج ونثارات الدم والأشلاء. لم يعد الناس يشاهدونه فى الأسواق، ولا فى الخلاء، أو على القهاوى، أو داخل المساجد والزوايا. تحددت خطواته بين البيت وقهوة فاروق والدكان وجامع على تمراز. حتى حلقة السمك لم يعد يتردد عليها. اقتصر تنقله بين البيت والدكان والقهوة والجامع.

بعد رفع أذان الظهر من جامع على تمراز المجاور، نتهيأ لترامى وقع قدميه. يغلق الدكان المطل على شارع رأس التين.

يؤدى الصلاة فى الجامع، ويتجه إلى البيت لتناول الغداء وقضاء القيلولة.

يتحول أبى وأمى من أحاديث المردة والجان والعفاريت والأشباح والأرواح والأطياف، إلى ظروف تجارة أبى، وأحوال مذاكرتنا.

يحل فى الشقة صمت متوتر، لايزول إلا بعودته إلى الدكان. يظل فيها إلى صلاة العشاء، ثم يمضى إلى جلسة أصدقائه فى قهوة فاروق. أطل على القهوة فى النهار. أتخيل جلسته داخل القهوة أو خارجها، وما إذا كان يكتفى باحتساء القهوة، ويدخن الشيشة، ويدخل فى مناقشات، أم يلعب الطاولة، كما يحدث فى القهاوى التى أمر عليها فى طريق العودة من المدرسة.

أمى وحدها كانت تنتظر عودة أبى آخر الليل. تحذرنا من غضبه إن لم نذهب إلى النوم قبل مجيئه.

أترك للتخيل صورة غضبه إذا كلمته أمى عن تصرفات لنا لا ترضيها، يداخلنى القلق والتوقع.

قد أصحو فى الليل على نثار كلمات تتناهى من حجرتهما المغلقة. تتداخل الأسئلة والملاحظات.

لم أعد أدخل حجرة أمى وأبى لأى سبب. حتى لو اتجهت لنداء. أكتفى بالوقفة أمام الباب. فى بالى ضحكة أبى المنفعلة وهو ينزلنى من السرير. جريت - خائفا - من حلم

لا أذكره. توسطت السرير بينهما. لكزنى بقبضة مترفقة:

- صرت بغلا.. عد إلى سريرك!

أدس رأسى تحت الغطاء، يشغلنى الفرار من الأشباح والأطياف والمخلوقات التى تنفث النار من عيونها.

جعل اشتداد المرض أبى على غير ما ألفناه.

كان يحظر على أمى أن تطل من النافذة، أو تنزل الطريق، دون أن يرافقها أحدنا، أو يعلو صوتها، فيترامى خارج الشقة. يحدد ساعات جلوسنا أمام التليفزيون حتى نخلو إلى المذاكرة، أو نذهب إلى النوم. لا يأذن لنا بقراءة ما يخالف الكتب الدراسية.

لم يهددنا - ذات يوم - بالعقاب. يكتفى بالنظرة المؤنبة. وبالإيماءة، أو التلميح. وكنت أحرص ألا أنظر فى عينيه مباشرة. أتجه بنظراتى إلى الأرض، أو إلى الناحية المقابلة.

كانت أمى توافق بلا أسئلة ولا مناقشة. أكتفى أنا وحنان بتحديق الاستغاثة الصامتة فى عينى أمى، ونحن نخلى موضعنا أمام التليفزيون، ثم نمضى - بخطوات متباطئة - إلى حجرتنا.

تحرص أمى - عند عودتى - ليلا - من اللعب مع الأولاد فى الشارع الخلفى - أن تقف - لطمأنتى - فى أعلى السلم، أو ترافقنى، تسبقنى أو تلحق بى، فى صعودى إلى الشقة، تتمتم بالفاتحة والمعوذتين لطرد الشياطين والأشباح التى

تختبئ فى الأركان وحنايا السلم.

كانت تحتضننى - كل ليلة - حتى يغلبنى النوم. أستعيد حكايات المردة والعفاريت والأشباح، أستزيدها وأنا أدس رأسى - بالخوف - فى صدر أمى.

أروح فى النوم، وذهنى ممتلىء بحكايات الأرواح والأشباح والجان والعفاريت، والأذى الذى أتوقع حدوثه فى لحظة ما.

اعتدت صحو أبى فى أوقات من الليل. يتجه - بخطواته الزاحفة - إلى دورة المياه، ويعود. يكتفى - حتى لايوقظنا - باللمة السهارى فى الطرقة.

أصيخ السمع لسيره بين حجرة نومه والحمام، لا وقع أقدام، القدمان تندفعان، ولاترتفعان عن الأرض. يترامى ما يشبه الزحف على بلاط الطرقة، كالكحت أو الهسيس.

قال الرجل فى نبرة شامتة:

- زمانك انتهى.

لم يكن قد تردد على الدكان، ولا رآه أبى فى شوارع بحرى من قبل. تأمل قامته الهائلة، ورأسه الأصلع إلا من شعيرات وراء رأسه، رمقه أبى بنظرة مستغربة:

- ما شأن زمانى بالبيع والشراء؟!

- لم تعد تفرض على الناس ما يشترونه.

علا صوت أبى بالغضب:

- التجارة مهنتى القريبة. قبلها كنت سيدا لأمثالك.

- كنت تمارس البلطجة باسم الفتونة.

تحسس أبى موضع المطواة بعفوية الزمن القديم، رفع يده الخالية فى وجه الشاب. لم يتدبر وقع الصفعة على وجهه. كان أبى قد عاهد نفسه أن يسكت عما يضايقه، وإن حدث فلا يترتب عليه رد فعل من أى نوع.

رفع الشاب سكينا. بدا أنه أعد نفسه لتطورات قاسية. أصابت الطعنة كتف أبى. تأوه وهو يميل إلى الأرض. انشغل الشاب - فى اللحظة التالية - بتكسير ما وصلت إليه يداه وقدماه، كل ما على الرخامة فى واجهة الدكان، وما على الأرفف من بضائع، كأنه قدم للفعل، ربما للثأر من حادثة قديمة منسية. فعل الشاب ما فعله، ومضى.

قال أبى:

- خطأ عمرى أنى أهملت الاحتفاظ بالمطواة منذ اعتزال الفتونة.

لاحظ أبى بطء حركته، وضعف استجابة قوته البدنية للمعارك التى كان يخوضها. هو يصفع، يسدد الكلمات والركلات، يهوى بالعصا، يقذف بالمطواة، لكن القيود يحسها ولايراها، لاتتيح له المعنى الذى يريده.

هل ينتظر حتى يفاجئه ما لم يكن أعد له نفسه؟!

أصر أبى أن يزوره الطبيب فى البيت. إذا ذاع ماحدث فى بحرى، فهو الموت بعينه، لن يقوى على النزول من البيت،

ولا الجلوس فى الدكان، ولا التردد على المقهى، تخذله عيناه فى مواجهة النظرات المتسائلة، والشامتة.

وافق أبى - فى حزنه - أن تسافر أمى إلى أهلها فى دمنهور. تأتى بما يعيد الدكان إلى ما كان عليه.

لاحظ أبى ما أعانيه، ترددى فى التوجه إلى حجرة نومى. هذه هى المرة الأولى التى أنام فيها بمفردى. لاحكايات حتى يغلبنى النوم.

الضوء الخافت المتسرب من زيق الباب، يضفى على الحجرة ضبابية شاحبة، يعمق شعورى بالخوف قطع الأثاث التى لاتبين عن تكوينات محددة، أشكال حيوان، وطير، ووحوش خرافية، وعفاريت، ومردة، كتلك التى كانت أمى تروى لى حواديتها.

قال أبى:

- لن تنام وحدك هذه الليلة..

واحتضننى بعينين باسمتين:

- وسأنام بالقرب منك!

زاد من تهيئى للخوف. أعرف أن أبى لاينام على السرير، ولا يصعد فوقه لأى سبب. يغفو وهو جالس على كرسى، ويسند ذقنه إلى كرسى أمامه. تلك هى صورة نومه من زمن لا أذكره، وعيت على جلسة أبى النائمة، غطيطه الهادئ، سعاله المفاجئ، حركة يديه فى تعاطى الدواء.

جلس أبى على طرف السرير المواجه لسريرى. غطى كتفيه وظهره بعباءة صوفية. أسلم جبهته إلى أعلى ظهر كرسى.

جال بعينيه فيما حوله، كأنه يتعرف إلى الحجرة للمرة الأولى. يحاول تبين المرئيات فى الظلمة الشفيفة، الضوء الخافت المتسرب من الطرقة، النافذة المغلقة، السرير النحاسى الذى أتمدد عليه، تكوينات الظلال فى السقف والجدران وقطع الأثاث.

قال:

- اطفئ النور..

وأردف للتردد فى ملامحى:

- سأقضى الليل معك.

ضغطت زر النور. حلت ظلمة، اكتست بالشحوب، من ضوء اللمبة السهارى فى الصالة.

أعرف أن صوته سيعلو بالشخير فى الدقائق المتقطعة التى يغفو فيها.

تغطيت إلى العنق.

دسست وجهى تحت الوسادة. أنتظر الصباح الذى يقترب ظهوره بدقات ساعة الصالة. دقات بالعدد أول كل ساعة، أحذف مابقى، وأتوقع الساعات التالية.

مايشغلنى وأتوق إليه، أن يأتى الصباح، فلا يبدو أبى مخيفا فى جلسته المتكومة. اختفت الملامح، لا رأس، لا عين،

لا أنف، ولاشفتان. تحركت الكتلة السوداء، تماوجت، تداخلت البطانية المسدلة على جسد أبى فى قطع الأثاث، تحورت، تباينت أشكالها، تقافز أمامى جان وعفاريت ومخلوقات لم أتبينها، تسلقت الجدران، والتصقت بالسقف، وأطلت من خصاص النافذة المطلة على الخرابة الخلفية، وتسللت ما بين الحجرة والصالة.

لم أستطع طرد التصور بأن أبى قد تحول إلى كائن من التى تناولتها حكاياته لأمى، وحكايات أمى له، ولنا. ننصت. ونتخيل، ونجسد تصورات لا تنتهى.

لا أعرف الوقت الذى اجتذبنى فيه النوم، لكننى صحوت – فزعا – على صوت ارتطام ثقيل.

جريت – باللهفة – خارج الحجرة، ناحية مصدر السقطة. حبسة البول توقظه – فى أثناء الليل – مرات كثيرة. أتنبه على صرير الباب، تتبعه خطوات أبى فى سيره نحو دورة المياه. أتابع هسيس خطواته ما بين حجرته ودورة المياه. يعقب توقف خطواته المكتومة، سؤال ترد عليه أمى من داخل الحجرة. يتسارع وقع قدميها، تلبية لما يريده. تتداخل الكلمات، وتشحب مفرداتها، ثم يختلط وقع الأقدام فى عودتهما. أعرف أنه يتساند عليها. ربما تناهى صرير باب دورة المياه. دقائق، ثم يقترب هسيس الخطوات، يتباعد حتى يختفى تماما. أدرك أن أبى عاد إلى حجرته.

هل غلبه النوم فى إغفاءة مفاجئة، فسقط، أو أنى سأواجه - وحدى - ما كنت أخشى حدوثه؟

كان يستند إلى الجدار متألما.

اتجهت بنظراتى ناحية نافذة المنور، فلا أراه فى جلسته الساكنة، المستسلمة، ويده ممدودة تطلب مساعدتى.

ضالة المريد

المصادفة هى التى أوقفته أمام مقام سيدى أحمد البدوى.

لم يذهب إلى طنطا لمناسبة من أى نوع، لا للمولد، ولا لأداء صلاة الجمعة فى حرم البدوى، ولا لزيارة مقام ولى الله، نزل من القطار فى محطة السكة الحديد دون أن يكون قد اتخذ من قبل قرارا. طالعه الميدان بزحامه ودكاكينه وبضائعه ومساوماته وصخبه.

جلس فى المقهى المواجه لميدان أحمد البدوى: عربات النقل والكارو والأكشاك والخيام وأعلام الطريقة الأحمدية والأعلام الملونة الصغيرة وباعة الحلوى والسبح وأحزاب الشاذلى ودلائل الخيرات والندءات الزاعقة، المتناثرة.

تأمل الداخلين والخارجين والمئذنة والقباب والساحة الهائلة

المتداخلة بين صحن الجامع والخارج. مضى ناحية الجامع. اندس فى زحام الخلق حول المقام، قرأ آيات من القرآن، وتلا أدعية، ولامس الأعمدة الحديدية بأصابعه.

اجتذبه التدريس فى مدرسة راتب باشا الابتدائية، فنسى الأمر، لم يعد يشغله ما إذا كانت وزارة التربية والتعليم قد عنيت بشكواه، أم أهملتها، فتظل معاناته. ما نطقت به شفتاه، تكرر أمام مقامات (أبوالعباس) والبوصيرى وكظمان وياقوت العرش وعلى تمراز وعبدالرحمن وغيرهم من أولياء الله، ألف قراءة القرآن والدعاء ومخاطبة الولى بما يعانيه، مجرد بوح، فضفضة عما بالنفس.

الرجل ذو الجسد الممصوص والبشرة السمراء، طوح بمجمرة البخور، وهتف: يابدوى!

تمتم بالدعاء:

– بركاتك يا بدوي!

أدرك أن المقصود هو ولى الله السيد أحمد البدوى قطب الأقطاب فى البلاد، وأكبرهم سلطانا، وأشدهم تأثيرا، له المكانة العالية، والمقام الرفيع، وهو الأب الحامى والمنقذ والمخلص والمعين والمرشد والمعلم والإمام.

انفراجة باب قد تتسع فيؤذن له بالمثول فى الحضرة، وعرض ما تعانيه النفس. يعرف أن ولى الزمان ينصر المظلوم، ويحمى كل من لاذ بمقامه، ينزل السوء بكل من

يتعرض له، ولمريديه، بأذى.

لما رأى الرجل ذا الذقن البيضاء والقدمين الحافيتين، والمرقعة ذات الألوان المتباينة، عرف أن ما رآه فى الليل لم يكن حلما.

زاره الرجل، دخل - بمكاشفة ولى - بيته وحجرة نومه.

أعاد الرجل قوله وهو يخترق زحام شارع الميدان:

- سيدى أحمد البدوى يريد لقاءك.

هو الرجل نفسه الذى التقاه فى ما ظنه حلما، الجسد الضئيل، والعينان اللتان أوشكتا على الانطفاء، والذقن المتهدلة على الصدر.

- لماذا؟

- إن شئت.. لاتذهب.

نصحته أمه أن يؤدى صلاة استخارة. إذا اطمأنت نفسه للسفر إلى السيد البدوى فى مدينته البعيدة، فإنه لابد أن يلبى دعوة ولى الله، هو دليل الحيارى، ومغيث المنكوبين، وشفيع من ثقلت ذنوبهم. إذا لم تخبره الصلاة باليقين، وما يطمئن إليه، فإن عليه أن يظل فى الإسكندرية، ويعتبر الرحلة حلما، أو هاجسا، عليه أن ينساه تماما.

صعد الدرجات الرخامية إلى صحن (أبوالعباس). مال إلى حجرة إمام الجامع، يمين الباب الرئيسى.

روى للإمام ماحدث منذ همس بشكواه إلى مقام البدوى، حتى أنبأه الرجل بترقب ولى الله لزيارته.

- أولياء الله ينعون هموم دنيانا.. وآخرتنا تطمع فى شفاعتهم.

قال الإمام:

- للسيد البدوى كراماته ومكاشفاته التى لانهاية لها..

أردف كالمتذكر:

- زيارة ولى الله لابد أن تحدث بإذن منه، أو أنه هو الذى يطلبها.

واتجه إلى عينيه بنظرة متسائلة:

- هل هو الذى أرسل فى طلبك.

هز رأسه فى توال:

- نعم، هو الذى طلب وقوفى فى حضرته.

- زيارة ولى الله خير فى كل الأحوال.

عرف من بائع الكتب الضرير، على رصيف (أبوالعباس)، ما لم يكن يعرفه. روى الكثير مما نسب إلى ولى الله من البركات والمكاشفات والمعجزات والخوارق. استقر فى باله ما استمع إليه من أحوال أولياء الله فى الإسكندرية وأفعالهم.

صعد الدرجات الخشبية إلى مكتبة الجامع. قرأ فى مناقب الأولياء، كراماتهم ومكاشفاتهم، حاول فهم المعنى والدلالة، وما ينبغى فعله: إعادة التائهين إلى ذويهم، السير فوق الماء، التحليق إلى قرب الغيم، صيد الطير بالمناداة عليه، التقاط الثمار فى غير أوانها. ولى الله أبو الدرداء، امتدت يده من

داخل الضريح، التقطت طوربيدا قذفته بارجة ألمانية، فأنقذ الإسكندرية من الدمار.

عرف من القراءات أن أولياء ما وراء البحر المحيط، وسائر البلاد والجبال، حضروا مولد السيد أحمد البدوى، إدراكا منهم للبشارة، وأنه ليس كبقية الغلمان هذا الطفل الذى انكسفت الشمس بشدة ضيائه، وانعكس جماله على وجه القمر، فصار الليل نهارا، وحلت المكاشفات بما يعجز عن فعله كبار الأولياء.

نسب أتباع السيد البدوى إلى ولى الله ما لا يحصر من الكرامات والمكاشفات والمعجزات والخوارق: قطع المسافة بين مكة ومصر - فى صباه - فى إحدى عشرة خطوة، وحين تلبسته الولاية صار يقطع المسافة نفسها فى ومضة عين، يزور البيت العتيق، يطوف حوله وهو مغمض العينين، دون أن يترك مجلسه. أمات من تغيرت عليهم نفسه، فلما صفت النفس هتف بهم، فعادوا أحياء بإذن الله، أتى بالأسرى من بلاد الكفر والضلال، أعاد خضرة الشريفة إلى قومها عزيزة مكرمة، سلم إليه القطبان الرفاعى والجيلانى مفاتيح البلاد والعباد، يأخذ منها ما تومىء إليه نفسه النورانية، ويستجلى ما غمض من أمور الدنيا والآخرة. جعل لنفسه موضعا بين سادة الديوان، جلساته ظهر كل خميس، برئاسة السيدة زينب، ينظر فى شكايات الناس، وحاجاتهم، يقضى بالعدل

والنصفة.

تحدثت الروايات عن صعوده الى السماء، واطلاعه على الغيب، ومشاهد الجنة والنار، ورؤية النبى رؤية العين، وتغسيل جثمان القطب بنفسه بعد أن حل الأجل، والتنبؤ بالأخبار وهو ميت. وروى أن السيد البدوى رمق - بنظراته النافذة - حاكما فى عهده، فأصيب الحاكم بما أفقده الحركة، ثم ما لبث أن مات.

عكست القراءات تهيئا فى نفسه للخوارق التى يصعب تصديقها، يتناهى الصوت المحمل بالبشارة، بالنصائح والرؤى السديدة وما يجب فعله، تخرج اليد النورانية من داخل المقام، تهبه ما تطمئن به نفسه، مثلما اطمأنت نفوس المصريين باستعادة اليد الشريفة أسرى المسلمين من بلاد الفرنجة.

لم يتوقع -مما قرأه - أن يرى ولى الله رؤية العين. أشفق على المريد الذى حذره البدوى من أن النظرة من عينيه برجل، ألح المريد فكشف ولى الله لثامه، فصعق المريد، ومات لتوه.

حين طالعه ميدان محطة طنطا - للمرة الثانية - مال - دون أن يتلفت - ناحية الميدن الأحمدى.

ألف ميدان المحطة، والساحة المواجهة للجامع الأحمدى، فى زواياها، وعلى الأرصفة، يتناثر القاعدون، وباعة الحلوى والبلح والخروب والشمع والبخور والمسابح والسير والأوراد

ودلائل الخيرات وأعلام الصوفية.

يجلس إلى مريدى الولى، واللائذين بالمقام، والقعود على المقاهى والأرصفة يصغى إلى الحكايات، ودعوات النصفة والمدد.

يصعد الدرجات الرخامية، بين صفوف الأعمدة، إلى الصحن الواسع، يتدفق النور من النجفات المتدلية، ومن شبابيك الخشب المعشق المطلة عليه، يتردد على المقام، يتضرع إلى ولى الله كى يعينه على مواجهة الظروف القاسية:

- مدد ياشيخ العرب، مدد..

تمنى لو أتيح له المثول بين أيدى سادة الديوان، أولياء الله: أحمد البدوى، عبدالقادر الجيلانى، أحمد الرفاعى، محمد الشافعى، يعرض مظلمته، ويطلب النصفة، يحصل على الطمأنينة بما تقضى به رئيسة الديوان.

لما حاصرته المضايقات، أزمع أن يلتقط - بتردده على جوامع الأولياء وأضرحتهم ومقاماتهم - ما يعينه على خطواته التالية، ما يوضح له إن كان طلب الولى لقاصده ضرورة، فيهبه الشفاعة والنصفة والمدد.

انضم إلى حلقة الذاكرين، يخضعون لضبط الرسيم إيقاع الذكر والإنشاد، اهتز، وتطوح، وعلا صوته بالآيات والمدائح والابتهالات والأدعية.

قال الرسيم :

- نحن فى أولى درجات الوصول . قد يعينك من أتيح لهم ارتقاء الدرجات على فتح الباب المغلق .

اندس فى زحام المولد . خليفة البدوى يركب جواده ، والآلاف من حوله أمواج متلاطمة . إذا لم يعرف الخليفة أحوال القطب ، أفكاره وهمومه وما يحرص عليه فمن الذى يؤذن له بدخول العوالم النورانية ؟

وضع راحته حول فمه ، وهتف :

- أريد أن ألتقى بسيدى أحمد البدوى .

طالت لحيته إلى صدره . أسدل على كتفيه عباءة بنية من الوبر . يحيط رأسه بعمامة خضراء هائلة ، فى يده مسبحة كثيرة الحبات ، يعد عليها - بصوت كالتمتمة - أسماء الله الحسنى ، أو يردد الأوراد .

قال الخليفة في ابتسامة هادئة .

- نحن الآن فى حضرته .

- هو الذى طلب لقائى .

رافق الزحام المتجه إلى داخل الجامع ، قاده إلى مقام البدوى . طالت وقفته بالقرب من المقام من أول الليل إلى مابعد صلاة الفجر ، الهدوء والسكينة والصمت . تناوشه التصورات : كيف يخاطب السيد مريديه ؟ هى يقفون فى حضرة مقامه ، يسألون ويجيب ، يشرحون الحال ، فيقضى بالرأى الصواب ،

يعرضون المظلمة، وينتظرون النصفة؟ وهل يترامى الصوت من داخل المقام، أو يظهر ولى الله لمريديه فى هيئة البشر، ألفوا حضوره المهيب، فلا تأخذهم المفاجأة.

لم يكن اللقاء مما يدور له ببال، لم يتخيله، ولا حاول تصوره على أى نحو. هو الذى وهبه شرف المثول فى حضرة مقامه. تعددت زياراته إلى مدينة القطب الأعظم، يعرف أن معاناته لا تغيب عن ولى الله الذى خصه الله بعلم الغيب، ومعرفة ما قد يعجز عن بلوغه البشر.

قال الشيخ محمد الليثى خادم الجامع:

- يلجأ الناس إلى المقام، فتتغير أحوالهم دون أن يتطلعوا للقاء السيد.

قال موضحا:

- لكنه زارنى فى نومى وطلب زيارتى.

وهو يرفع كتفيه النحيلتين:

- عليك بدوام الزيارة. للسيد بركاته.

قبل أن يسعى إلى مقام سيدى أحمد البدوى، توضأ، وكبر لصلاة الاستخارة: اللهم إني استخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم،و أنت علاَّم الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فقدره لى ويسره لى، ثم بارك لى فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر

لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاصرفه عنى واصرفنى عنه، وقدر لى الخير حيث كان، ثم أرضنى به. هل تأذن لى أن أزور سيدى أحمد البدوى، وأتخذه مقصدا لى إليك فى محنتى؟

أكثر من التردد على الجامع، يأمل أن يجد ما حول المقام خاليا من الزائرين. وشت بالعتاب لهجة الرجل ذى المرقعة والذقن البيضاء المسدلة، حين التقاه فى زحام شارع الميدان:

– مادامت راضيا.. لماذ اشكوت إلى مقام سيدنا؟

أضاف وهو يخترق الزحام:

– من خصه السيد بقطبيته، لايلجأ إلى أولياء آخرين!

قبل أن يستعيد انتباهه، كان زحام المارة والباعة والعربات والنداءات والصيحات، قد ابتلع العجوز.

كان الصباح رماديا، بقع الضوء المتسللة من تشابكات النوافذ تومض بما يشبه نثار الفضة، المرئيات تتموج وتسبح فى تكوينات متداخلة، وإن تبين مصلين، تمددوا، أو تكوروا – تحت الأعمدة الهائلة – وأسندوا وجوههم على أذرعتهم المثنية.

اجتذبه فيض غامر من النور، ملأ جوانب المقصورة المعدنية، ألغى الظلال واختلاط الأضواء.

تنبه إلى سقوط شىء صلب، أدرك – بصدى الرنين – أنه معدنى – اجتذبه – أسفل الأعمدة الحديدية – بريق لم يتبين

مصدره. تلفت يبحث عن اليد التى ألقت السيف على أرضية المقام، لكن الصمت ظل سادرا، والنوم يلف تناثر المصلين، والضوء الباهر يخفت، فيعود إلى ماكان عليه.

مد يده فالتقط السيف، رفعه فى مواجهة عينيه، تأمله، أعاد التلفت.

الصمت يحيط بالمكان، يعمقه تصاعد موجات البخور، وترامى أدعية وابتهالات وتراتيل وتسابيح وإنشاد ونداءات وهتافات استغاثة، من النوافذ المطلة على الميدان، والشوارع المحيطة بالجامع.

وضع السيف تحت إبطه، واستدار خارجا.

الحكواتى

تخترق - كل صباح - سوق الحميدية إلى نهايتها. تمتد بين قلعة دمشق والجامع الأموى. مغطاة بسقف حديدى، الفتحات - على جانبى السقف - نوافذ للضوء والتهوية، تضفى على المكان رمادية شاحبة. الثقوب الصغيرة - فى روايات العجائز - أحدثها رصاص الجنود الفرنسيين أيام احتلال بلادهم للشام. تبدو كالنجوم المبثوثة فى سماء السوق، فى سقفه، أو تتسلل منها أشعة الشمس فى حزم صغيرة. يظل الكثير من المصابيح مضاء طيلة اليوم. البضائع مكومة على عربات اليد الصغيرة، وفى واجهات الدكاكين. الأقمشة والعباءات والمناديل الحريرية والجوارب والأحذية والحلوى والبوظة والآلات الموسيقية والصناعات التقليدية

والموزاييك والنحاس المزخرف والفضة والنراجيل. ترافق أباك فى التمشى - ليلا - داخل السوق. انعدام حركة المرور والهدوء والصمت. تعطى المواعيد أمام جامع شمسى أحمد باشا. ساحة المسكية قبالة الجامع الأموى، يتناثر فيها باعة الكتب والأدوات المدرسية، وباعة البخور والأوراد، شارع معاوية فى اتجاه الجامع الأموى. تميل إلى اليسار، الجامع على يمينك بارتفاعه واتساعه ومآذنه الجميلة وقبته المزخرفة ولوحات الفسيفساء. تجتذبك الفسيفساء التى تصور الجنة، ضريح يوحنا المعمدان فى وسط ساحة الصلاة، تتجه إلى الشارع العمومى، ثم إلى شارع جانبى.

مقهى النوافرة، بالقرب من الباب الشرقى للجامع الأموى. الكراسى الخشبية والنارجيلة، والحكواتى فى تعدد رواياته لسيرة عنترة، وأصوات المديح والاستعادة.

الكتاب مفتوح بيد الحكواتى اليسرى، والسيف الخشبى يهتز فى يده اليمنى. يرافق قراءته المنغمة من الكتاب، تطويحات للسيف، تصطدم بالصور المعلقة وراءه، عنترة فى أوضاع فروسية بمفرده. أو مع جواده الأبجر، أو وهو ينازل الأعداء.

استحوذت أحداث السيرة وشخصياتها على رواد المقهى تماما. يشد انتباههم حكايات الراوى عن معارك عنترة، ضربات سيفه، براعته فى قيادة الأبجر. هم مشدودون،

مرتبطون بما يتابعونه من الأحداث، وما يؤلفه الحكواتى عفو الخاطر إضافات تثير التوقع والانتباه.

يرتفع صوته وينخفض، يمتد ويقصر، يلون صوته تعبيرا عن الشخصية أو الموقف. يدخل تغييرات على السيرة. يخترع أحداثا أو شخصيات لم تكن موجودة، يعمق المعانى التى ربما كانت غير واضحة أو باهتة، يحذف ويضيف فى مايرويه للناس. يستجيب إلى ميولهم، وتعالى عبارات الاستزادة والرفض. يبدل فى البداية أو النهاية، ينسج خيوطًا جديدة فى نسيج الحكايات، يحرك سيفه الخشبى فى الفراغ، كمن يصارع خصما يراه هو، ولايراه الحضور.

قال الراوى:

- عنترة بن شداد هو فارس قبيلة عبس الأول، زبيبة هى أمه السوداء، سباها أبوه فى إحدى غزواته، فأولدها عنترة، وجد نفسه عبدا بحكم التقاليد القبلية السائدة فى عصره. لم يعترف به الأب، ونفاه إلى حيث يقيم العبيد، لا عمل له إلا رعى الإبل والأغنام والأعمال الحقيرة.

قال رجل فى أول الصفوف:

- حفظنا ما قلت.. نستطيع أن نستكمله.

قال الراوى:

- إذا أعطيتمونى انتباهكم، وأصغيتم لى، فسأروى ما لم تعرفوه من سيرة عنترة. ما قاله الرواة الذين عرفوا حياة

عنترة جيدا..

ظهرت دلائل قوته فى سن باكرة. إذا حان وقت الرضاع فإنه يذكر أمه بصوت كزئير الأسد. وكانوا يلبسونه كل يوم قماطا جديدا. فيقطعه، ولو كان من حديد.

ثم كبر عنترة، واشتدت أوصاله، وقوى عصبه، وانصلحت أحواله، وقويت عظامه. صار الفرسان يفزعون من صولته، ويخشون هيبته.

نزع شيخ مبسم الشيشة من فمه، وهتف:

- أحضر لأستمع إلى قصة حب عنترة وعبلة..

اعتاد - أمام الصيحات المستنكرة أو المحرضة - أن يعيد رواية السيرة بصورة مختلفة. يضيف، ويحذف، ويطيل، فى المواقف التى يتصور أنها سترضى الحضور.

قال الراوى:

- كل ماتريدون سماعه سأرويه.. تربكنى المقاطعة فأنسى..

أخفض سيفه إلى جانبه:

- أحب عنترة بنت عمه عبلة، وأحبته. حبه لعبلة هو الباعث لجيشان الشعر فى صدره، ولسعة خياله، وهيجان شاعريته. كانت أصغر فى عمرها من عنترة، ضاحكة السن، تزهو كهلال، مبدعة فى حسنها وجمالها، تفوق ملاح بنى عبس. وكانت تتدلل على عنترة، وتكثر معه المزاح . لم

تكن تعتبره ابن عم لها، بقدر ما اعتبرته خادما، لكنها ظلت على إعجابها به، وبرجولته وفحولته وشعره.

أخلص عنترة حبه لعبلة، لم يشرك به حبا آخر، لا يعدوها إلى غيرها، ولايصرف هواه إلى سواها. قضى حياته راهبا، متبتلا فى محراب حبها، يغنى لها، ويتغنى بها، ويمزج بين بطولته وحبه مزجا رائعا جميلا.

بادلت عبلة عنترة حبا بحب. وحين وصف شمائلها وجمالها وهى بين صديقاتها، أظهرت الفرحة والإعجاب، وشاغلته بنظرة متواطئة، وخصته بابتسامة.

وافق الحاكم - بإلحاح من وجوه القبائل - على زواج عبلة من محبها.

قرن موافقته بأن ويرفع المعلقات عن أستار الكعبة، فلا تظل باعثا للتباهى، ويحرص أن يظل السيف فى غمده، إذا سله فهو إعلان بالنزال ضد من شرف فناجين القهوة فى ود، ويهمل عمليات السطو والنهب والتدمير فى مضارب قبيلته، كأنها لم تكن.

قال: هذا هو مهر ابنة عمك!

ارتفع صوت من أقصى المكان، بدد السكون المنصت:

- أنت تحكى لنا قصة حب مللنا سماعها. نريد حكايات الفروسية.

قال الراوى:

- نفض عنترة عن جسده ما قيدته به القبيلة من الإهمال وعدم الاعتراف.

لم تقتصر حياته على العبودية والرعى وتلبية احتياجات القبيلة. قالت له القبيلة: اذهب فارع الإبل والغنم واحلب وصر. انطلق يرعى، وادخر ما اشترى به سيفا ورمحا وترسا ودرعا ومغفراً. دفنها فى الرمل، وأعد نفسه لقادم الأيام. يشغل فراغ وقته بالعدو والسباحة وركوب الخيل والتلاعب بالسيف. أجاد فنون الحرب والقتال والطعن والنزال والكر والفر. يصيب بسهامه الطير فى السماء. ربما لكز الجواد، فيطير بلا جناحين. يمضى فى الأفق، حتى يبلغه التعب، فيومئ لفارسه. يأذن له بشد اللجام، فيهبط.

ناقش عنترة أباه ما إذا كان يعطيه حريته ليدافع عن القبيلة، أم يتجاهل وجوده؟

مع أن الأب رفض الاعتراف بعنترة، وضربه، فإن عنترة لم يكن يطيق أن يرى قومه فى شدة إلا ويسارع لنجدتهم. ذلك ما فعله حين سمع أن الأسود أخا الملك النعمان قد أقبل بجيش الحيرة لقتال بنى عبس، وتأديب ملكها زهير.

قال لعروة: والله يا أبا الأبيض ما أنا للملك زهير وأولاده ردىء الفعال، حتى أنه يفعل فى حقى هذه الأفعال، لكننى لا أحقد عليهم، ولا أنسى جميلهم، ولا أواخذهم بسوء أعمالهم، وأتبع رضاهم، ولا أغضب عليهم، ولابد لى أن

أبذل روحى فى هواهم، وأنصرهم على أعدائهم.

قال الراوى:

- ظل عنترة يمتطى صهوة جواده. عرف أنه - لكى يظل منتميا إلى حريته وقبيلته - فإن عليه أن يواجه المصاعب. تنقل بين الكهوف والجبال والأودية وعيون الماء والخيام والخلاء. مفردات حياته: السيف، الرمح، الدرع، النوق، الجواد، الخمر. يدرك أن المخاطر التى تواجهه هى ثمن عتقه من العبودية، ثمن الحرية التى يتوق لها. ينقض على عدوه، لايتركه حتى يصرعه، إما بعضلات ذراعيه، أو بالسيف. لم يلجأ إلى خسة أو لؤم أو ختل. إذا وجد ما يغضبه، تبدل مزاجه، وطلع الزبد على أشداقه، وثار ثورة الأسد، وعلا سيفه فى يده.

مشاعر المقاومة هى التى أملت عليه أن يتجه إلى خصوم قبيلته. تحرضه صلة الرحم والنسب والأخذ بالثأر والغارات المتبادلة، المنتظمة.

صال وجال فى ميادين الضرب والطعان ومقاتلة الأبطال، لا يستثنى أصحاب القوة الخارقة، ولا القدرات التى يعجز عن مواجهتها بقية الفرسان، هو نسيج وحده، وهو بطل زمانه.

شارك فى حروب قومه، حقق فيها العديد من الانتصارات. صار قائدها المقدم على فرسانها، إذا حمل يحملون، وإذا أحجم يحجمون. يقدم إذا رأى الإقدام عزما، ويحجم إذا رأى

الإحجام حزما، لايدخل إلا موضعا يرى له منه مخرجا، وكان يعتمد الضعيف الجبان، يضربه بقوة يطير لها قلب الشجاع، يتهيأ للقتل، فيقتله.

تعددت معاركه فى بلاد السودان والحبشة وبلاد الروم.

وحين تمطت أنفاس الخطر بين المضارب والبيوت والخيام، عنى عنترة بأن تظل الصحراء لأهلها. نسى حتي حبه لعبلة، وحرصه على التحرر من العبودية، وسيفه الذى أطاح بعشرات الأعناق. عرفت أن الأسلحة التى اخترعها الأعداء تكتسح ما أمامها من بشر وحيوان وأبنية ومزروعات ورمال.

رفض عنترة نصيحة أبيه أن يقصر فروسيته على الدفاع عن قبيلته. قال إن جواده الأبجر ينطلق فى الصحراء، لايفرق بين مضارب قبيلة وأخرى.

تناهى صوت من آخر المقهى:

- لماذا لاتقرأ لنا من شعر عنترة؟

قال الحكواتى:

- شعره هو حياته.

قال الشيخ:

- الشعر فى الكتب. نحن نأتى للحكواتى.

قال الراوى:

- رفض فرسان اليمن إعلان عنترة أنه يريد تعليق قصيدة له على الكعبة، إلى جانب المعلقات التى وضعها زهير وطرفة

ولبيد وابن كلثوم وامرؤ القيس.

بارز عنترة فرسان اليمن، قتل منهم وأسر أعدادا يصعب حصرها، حتى رضخوا لإرادته فى تعليق قصيدته على أستار الكعبة.

قال طرفة بن العبد لعنترة: يا أبا الفوارس، ما أنت إلا قد كملت في الشجاعة، ولكن قد بلغنى إنك رجل معلول النسب، ولولا ذلك كنا قبلنا وسمعنا ما قلته من شعرك، وفى فصاحتنا أدخلناك.

تناشد عنترة وطرفة الشعر. لما أنشد عنترة، قال له طرفة: يا لك من أسود، ما أبلغك فى الفصاحة والفروسية، والله لو أن أمك عربية لكنت افتخرت على سائر عرب البرية، لكن اسم العبودية درجة ردية، ولولا ذلك لسمحنا لك بتعليق القصيد، وبلغناك مناك.. لكن والله يا ابن السوداء ذلك منك بعيد، لأن الموالى ما تقاس بالعبيد.

تواجه عنترة وطرفة بسيفيهما. فانتصر عنترة، وأسر طرفة.

استعاد شعراء المعلقات قصيدة عنترة. وافقوا – لإعجابهم بها – أن توضع إلى جوار معلقاتهم على جدار الكعبة. قالوا: يحق له أن يعطى عنان الطاعة.

أضيفت القصيدة إلى القصائد الست، يشاهدها، ويقرؤها، من يطوف حول البيت الحرام.

قال عامل النصبة وهو يغسل الأكواب :

- ما أعرفه أن معارك عنترة وقصائده لأنه أحب عبلة .

قال الراوى:

- قضى عنترة نهايات أيامه بين الخيام والمضارب . سيفه فى غمده، وجواده الأبجر يعانى قلة الحركة . اقتصر على مرافقة عبلة بين حلقات الرقص والغناء، يصد عنها - بمجرد وقوفه خارج الحلقة - معاكسات الشبان وأذاهم .

ربما - إذا دعته إلى نزول الحلبة - أدى من الرقصات ما يفوق الجميع، وعلا صوته بغناء ينتزعه من أعماق روحه .

عبلة هى الشمس والقمر والنجوم التى لايغيب ضوؤها، هى الأمن والطمأنينة والسعادة والفرحة، هى الطلعة الجميلة والأنس الدائم .

لاحظ أبناء القبائل انشغال عنترة بحب عبلة، ملك عليه حبها حياته، فأهمل السيف والمعارك والكر والفر والقصائد المتحدية . ترصد له شبان فى سيره وراء عبلة إلى مخيم للغناء . نالوا منه بما يطمئنهم إلى موته . تركوا لعبلة حياتها . كى لاتواجههم ثارات لاتنتهى .

قضى عنترة وهو فى غاية الحزن، لاخوفا من الموت، وإنما خوفا على عبلة، وعلى ما قد يصيبها من بعده . لن تستطيع عبس حمايتها، ولا المدافعة عنها . هذه موتتى التى كتبت على، فيا ترى، كيف تكون موتتك ؟

ظلت عبلة باقية على ذكرى حبيبها. تعدد من حاولوا استمالتها، والظفر بقلبها ، لكنها قصرت مشاعرها على حب عنترة. قالت: لا يحب قلبى غير عنترة بن شداد، الذى نال الفخر على جميع البلاد، ولا أزال عليه أتحسر حتى أعدم السمع والبصر.

استعاد رجل فى حوالى الخامسة والأربعين، يحيط رأسه بتلفيعة، ما رواه الحكواتى فى نهاية السيرة. جلسة عنترة ميتا فوق جواده، وإن وشى انتصابه الساكن بعكس الموت. يظل رعبا للأعداء، حتى تعد عبلة والنساء إلى مضارب القبيلة.

أعاد الحكواتى نهاية السيرة..

قال الرجل:

– تقصد أن عنترة مات؟

– هذا ما قالته الحكاية؟

– ما ترويه السيرة أن عنترة ظل حيا حتى بلغ الإسلام، ودافع عنه.

– الحكايات كثيرة.. أروى عن السيرة الأصلية.

صرخ الرجل:

– كيف تقتل عنترة؟

– أنا لم أقتله. قتلته السيرة..

– السيرة كاذبة!

تمازج فى صوته التأسف والضيق :

- طلبتم أن أروى لكم حقيقة ما حدث، كيف نشأ عنترة، وعاش، وقاتل، وأحب، ثم شغلته قصائد الحب عن فتوته ومعاركه، فكان ماكان.

وضغط على الكلمات :

- ما أقوله هو الحقيقة التى لم أبدل فيها. ما حدث بالفعل!

هز الرجل رأسه دلالة النفى :

- عنترة لايموت!

- هل أبقى عنترة حيا إلى الآن كى أرضيك؟

يعرف الراوى أنه إذا بدأ فى حكى سيرة ما، فإنه لن يستطيع إنهاءها على النحو الذى تريده السيرة، ما يريده الناس يجعل من الصعب أن تنتهى الحكاية، تختلف توقعات مصائر بطل السيرة، عنترة أو أبى زيد أو الزناتى أو بيبرس. تتعدد الرغبات بقدر حب كل شخص للبطل وكراهيته.

قال وهو ينزل الربابة عن صدره :

- هذا ما انتهت به سيرة عنترة الحقيقية. وعدتكم ألا أبدل فيها ولا أحور.

- أنت تروى السيرة لتسلينا.

- هل أكذب لأسليك؟

- ارو السيرة لنفسك إذن. سنذهب إلى حكواتى آخر.

علا صوت صاحب المقهى بنبرة شامتة :

- هذا هو مقهى الحكواتى الوحيد.

الرجل يعيش من ربابته وحكاياته. إذا ترك المقهى قد يصعب عليه الحكى فى مقهى آخر. يقتصر وجوده على المقهى، لايجاوزه إلى الأحياء والميادين والقرى والخلاء. ينشد سيرة عنترة دون غيرها من السير والملاحم والحكايات.

هل ما تشاهده هو نهاية الراوى وتحويراته اليومية فى مايرويه من سيرة عنترة؟ هل يذهب الراوى فلا يعود؟ تأتى إلى مقهى النوافرة - فى زيارة تالية - فيطالعك ما اعتدت رؤيته فى كل المقاهى التى تتردد عليها؟ تغيب الربابة والسيرة وعنترة؟!

السجادة

عشرات الأسئلة ناوشتنى وأنا أقرأ عن هؤلاء الناس فى الأماكن البعيدة، أجد فيهم المعنى الذى أجد نفسى فيه، أطلب المشاهدة، وتلقى الأجوبة والفهم والمشاركة. يذوى إحساسى بالعزلة، أو يتلاشى.

تمنيت أن تعيننى القوى الخفية، ما يختص الله به عباده الصالحين، فلا تحجبنى الجدران ولا العوائق من أى نوع، تختزل المسافات، وتقرب المواضع البعيدة.

تخيلت طاقية الإخفاء فوق رأسى. أرى الناس والأشياء من حولى، ولايرانى أحد. أنفذ ما تمليه نفسى دون خشية أذى. تمنيت لو أنى أمتلك خاتم سليمان، أفهم به لغة الطير، أعثر عليه داخل صدفة مما يتناثر على رمال الشاطئ، أو فى فم

سمكة أصطادها، أو فى أعماق البحر القريبة، أو يقذف به طائر محلق على امتداد الأنفوشى، ترددت على دكان عطار بسوق الترك، يحتفظ بخلاصة أعشاب من يتناولها صارت له قوة عنترة.

اجتذبنى فى أبطال الحواديت تنقلهم بين مدن السحر والحكايات المثيرة، على سجاجيد صغيرة، يحتمون بها من مطاردات الأشرار والغيلان والمردة والعفاريت.

تمنيت - بينى وبين نفسى - أن أصبح من أهل الخطوة، أقطع المسافات نفسها التى روى أن (أبو العباس) قطعها، ولايزال يقطعها بعد مماته، أزور الأماكن التى يجسدها الخيال. صرفت تفكيرى عن الطائرة والقطار والسيارة.

تنطلق من نقطة إلى نقطة تالية، تبدأ من محطة، وتنتهى فى آخر المحطات. طيران السجادة يبدأ ولاينتهى، يحلق حيث أشاء، بالكيفية التى أريدها، أحثها على السرعة والبطء والارتفاع، والهبوط إلى مسافة تعيننى على الرؤية، تطير فوق البنايات والشوارع والبحار والمحيطات والصحارى والجزر. تمضى إلى الموضع الذى أعرف ناسه، ويعرفوننى، وإن لم نلتق من قبل.

ما أريده رحلة تختلف عن رحلات السندباد السبع إلى جزيرة الملك المهرجان، وجزيرة الرخ، وجبل الماس، وجزيرة العسرات، وجزيرة العمود القمارى، ومدينة الصين، وإقليم

الملوك، ووادى الحيات، وجبل القرود، وجزيرة السلاهطة، والمغارة، وبيضة الرخ، وشيخ البحر، وإخوان الشياطين، وما يصعب حصره من الفاكهة والزهور والأشجار والينابيع والطيور المغردة والحلى والقلائد والجواهر والمعادن.

كان السندباد يركب البحر فى رحلات الاكتشاف والمغامرة. قربته المآزق من الموت، لكنه كرر المحاولة، حتى آثر العودة إلى مدينته التى انطلق منها، ورأى من الغرائب ما رأى.

إذا كانت حكايات الخيال تتحدث عن البساط السحرى، فإن السحابة هى بساط سيدى ياقوت العرش، تنقله من موضع إلى آخر تشغله قضايا الناس فى دنيا الإسلام.

قرأت عن الأولياء الذين كانوا يركبون السحابات البيضاء الصغيرة، تنقلهم من موضع إلى آخر فى العالم الفسيح. يمضى إلى ترامى الدعوات والابتهالات ومطالب النصفة والمدد. قرأت عن كرامات السجادة فى سير الأولياء والتابعين، ليست السجادة بالمعنى الروحى، يطويها الولى تحت إبطه، يقطع المسافات، ثم يضعها فى أى موضع يريد أن يلتقى فيه بمريديه، يتوسط الموضع، والمريدون من حوله. السجادة هى التى يركبها الولى، تنقله إلى حيث يشاء، إلى البيت الحرام والحرم النبوى والمسجد الأقصى. وأماكن أخرى لها قدسيتها وطهارتها. هو من أهل الخطوة، مايهبه القدرة

على زيارة كل ما يصله بالعتبات المقدسة، وبأضرحة الأولياء والصحابة والتابعين. قد تنقله إلى استغاثات الأسرى والمرضى والمستغيثين من المظالم وطالبى النصفة والمدد.

تلك مكاشفات أولياء الله، خصهم بها دون بقية البشر. ما أريده هو البساط السحرى الذى تتحدث عنه الحواديت. أو السجادة التى يتاح ركوبها للبشر العاديين.

اعتلاء أولياء الله سجاجيد تطير بهم إلى مدن فى الشرق والغرب، وتأتى من الكرامات والمكاشفات والمعجزات والخوارق التى لاتخطر على ذهن بشر، بداية اهتمامى بما ينبغي أن تؤديه السجادة فى حياتى - وربما حياة الآخرين - فلا تقتصر على مجرد أنها دوس للأقدام.

السجادة هى ما شغلنى بين آلاف الأشياء العجيبة، والمدهشة، والتى تبدل الأحوال. أهملت طاقية الإخفاء، والبلورة السحرية، وتحول المعادن إلى ذهب، ومخاطبة الحيوان والجماد، والوقوف على رأس قصبة، والجرى على خط رفيع ،والطيران فى الهواء،والسير على الموج، وركوب الحيوانات الصغيرة كالقطط والكلاب، والاطلاع على كنوز الأرض.

شغلنى البحث عن طريق مختصرة للوصول - بوسيلة ما - إلى هؤلاء المقيمين فى مناطق بعيدة، لا أعرفها، ولا أتصور ملامحها تماما، لديهم القدرة على الإنصات والفهم والفعل.

السجادة هى الوسيلة كى أصل إلى ما أريد الوصول إليه، مدن وقرى وخلاء ومناطق مهجورة، وجزر صغيرة تتردد فيها أنفاس البشر.

تطير بى السجادة إلى حيث أشاء، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا. أهبط فى الموضع الذى أجد فيه ناسا أعرفهم ويعرفوننى، نتدارس مشكلاتنا، وما ينبغى فهمه. نسأل، نجيب، نستعيد ماجرى، نرنو إلى المستقبل.

للمكاشفة وظيفتها، هى لاتسعى إلى الاكتشاف والمغامرة، ولاتنطلق إلى المجرد وإظهار القدرة، لكنها تعبر عن معنى، أو تجد إجابات عن أسئلة.

كان فى بيتنا سجادة باتساع الصالة. أما الحجرات الثلاث فقد فرشت أرضياتها بكليم أسيوطى مزينة بنقوش فرعونية وقبطية.

حين فرد أبى السجادة على أرضية الحجرة، سألت أمى عن الموضع الأنسب لها

قال أبى:

-هذه سجادة أثرية موضعها على الحائط لا على الأرض.

توسطت السجادة المستطيلة الصغيرة، ذات النقوش والمنمنات حجرة الصالون، ينصت الضيوف إلى أحاديث أبى عن ظروف شرائه السجادة، منذ اجتذبته فى دكان تحف بالعطارين، وتردده على الدكان أياما متوالية، يضيف إلى

السعر الذى عرضه، حتى وافق البائع، وعاد أبى بالسجادة إلى البيت.

أول مرة وعيت على السجادة خارج البيت لما رفع الحصير من صحن سيدى على تمراز. حلت - بدلا منه - سجاجيد موحدة المساحات والنقوش والألوان، بدت - فى الصحن الواسع - كأنها قطع بلاط كبيرة، متجاورة، تضوى فى ألق الأضواء المنبعثة من النجفة الهائلة المتدلية من السقف، والأبليكات الموزعة فى الأركان.

قال لى الشيخ عطية البنهاوى إمام جامع سيدى خضر:

- أنت لاتعرف ماسبق، فلن تعرف ماسيأتى.

واكتسى صوته نبرة محذرة:

- عليك فى البداية أن تزيل الصدأ من نفسك.

وأدار إصبعه فى الفراغ:

- هذه خطوة أولى، تسبق خطوات تالية.

وواجهنى بنظرة مشفقة:

- ستظل بعيد عن بداية الطريق. ما لم تنفض الغبار من ذاتك، وتتهيأ للسير فى طريق لايخلو من وعورة!

حرصت أن أقضى معظم وقتى فى الجوامع والمساجد والزوايا، والاندساس فى حلقات الذكر، والتأمل فى عظمة الخالق.

التأملات والتهدجات والأدعية والرقى والعزائم خطوات تالية للتجارب وحسابات الأرقام، والمربعات والمثلثات،

والدوائر. الانكباب على القراءة ومحاولة فك الشفرات والطلاسم. والحصول على أجوبة عن الأسئلة الصعبة.

تلوت آيات من القرآن. همست بالكثير من عبارات الذكر والدعاء. قرأت كتبا ومخطوطات فى الفلسفة والدين والعلم، وكل مايعين على الحدس والفهم والكشف، والسعى إلى الفعل. عرفت – فى بركات الأولياء ومكاشفاتهم – ما لم أكن أعرفه: التنقل بين الأرجاء دون أن يترك المرء موضعه، مخاطبة أهل العوالم الأخرى من الملائكة والجان، تلقى النصح والتوجيه من الأقطاب الراحلين، الاختفاء فلا يراه أحد بينما الولى يرى حتى ما تحاول النفوس إخفاءه فى داخلها. حاولت التعرف إلى أسرار النجوم والحروف والأسماء والطلسمات والأعداد. تلوت أدعية بالأسماء السريانية. وضعت البخور فى المجمرة، المسك والبلسم والجاوى والحبهان والشبة والكافور والعنبر وجوزة الطيب وعين العفريت. أشاع فى الحجرة ضبابية شاحبة. تعلمت طرق السحر، وفعل ما ينتسب إلى المعجزات، تشكيل الشىء فى غير صورته، تحريك الثابت والساكن وتصريف الأمور.

لم يشغلنى اكتساب قوى خارقة، خاصة، يمتلكها الأولياء والصالحون. بدت لى السجادة أنسب الوسائل لتنقلى إلى حيث أشاء. أصدر لها أوامرى، أشاهد من فوقها ما أبلغه من مناطق، لايعوزنى مهبط كما الطائرات ولا أحتاج إلى من

يعيننى على أى نحو . أهبط فى الوقت الذى أريده أطوى السجادة تحت كتفى ، أتعرف إلى ما أريد مشاهدته ، أجول فى الشورع والأسواق والميادين والأزقة ، أخترق الأماكن المزدحمة والضيقة ، أفتح الحجرات المغلقة ، أجلس على المقاهى وفى الحدائق ، والأماكن التى لاتبلغها وسيلة نقل من أى نوع . أفرد السجادة من تحتى ، أثبت وقفتى فوقها ، أهمس بكلمات تمهد لما يحدث ، ثم أنطق بالأمر : انطلقى !

لجأت إلى أصحاب الصنعة وأرباب التجربة . أفاضوا فى الحديث عن أسرار مغامراتهم فى العالم السفلى ، والقراءات التى يستطيع من يقرؤها أن يستحضر الجن ، ويأتى بالخوارق ، ويتحكم فى مصائر البشر . رددوا كلمات يعرفون – وحدهم – معانيها ، ركبوا أجساما منفصلة ، مزجوا أعشابا وأدوية وتراكيب .

خلوت إلى نفسى أقرأ فى علوم السحر والتنجيم والصنعة والأعداد وتفسير الأحلام ، ما تناثر فى المخطوطات وكتب القدامى من الطلاسم ، لصنع مالايستطيع صنعه البشر ، ماتعجز عنه قدراتهم العادية من عجائب المقامات ، وغرائب الأحوال .

قرأت فى علوم الأعداد والحروف والطبائع الأربع والكواكب والأفلاك والبروج والمنازل والاختيارات النجومية . الأوفاق وتأثيرها على عناصر الماء والهواء والتراب والنار . الحروف وأسرارها . ربط الحروف بمنازل القمر ، وأحكام البروج ، وأسرار فواتح السور ، حتى الحروف

التى استخدمها آصف بن برخيا فى نقل عرش بلقيس، حفظتها جيدا، وأعددت نفسى لنطقها فى الوقت المحدد.

عرفت - بالقراءة والتأمل والمراقبة - ما لم أكن أعرف: طى المسافات، وزى الأرض من غير تعدد، فالجسد فى موضعه، وإن تنقل - فى اللحظة نفسها - بين الكثير من المواضع.

الصعوبة وجدتها فى تجاوز قانون الجاذبية الأرضية، والتأثير على سجادة صغيرة، مفرودة، لترقى بى إلى فوق، والسباحة فى الهواء، إلى المواضع التى أريدها. الكثير من الخوارق يحتاج إلى التأمل والمثابرة، وإخضاع الجسد لإرادة صاحبه: السير على النيران المشتعلة، النوم على المسامير، الوخز بالأسياخ المحماة.. وسائل يخضع المرء جسده لها. الصعوبة فى إخضاع ما لا سيطرة لنا عليه.

كررت ورد الخلواتية: «أسألك اللهم أن تمدنى منك بدقيقة من دقائق عظمتك، ينفعل لى بها كل ما أتمثله من كل شىء فى علم غيبك، المحيط بحقيقة كل مشهود، فأتمكن من فعل كل ما أريد، تمكنا أتصرف به فى كل الوجود، بإذن العلى السارى فى كل موجود».

لم أظهر الفرحة حين علت السجادة الصغيرة بأمرى لها. كنت أعرف أنى أجدت حفظ ما ينبغى قوله، ماكان يردده أهل الخطوة من الأولياء قبل أن يبدءوا الطيران.

اهتز جسدى فوق السجادة، وثبت.

حلقت السجادة فى سماء الأنفوشى، صافية إلا من سحابات بيضاء، متناثرة. مضت فى اتجاه البوغاز. دعوت أن يكون اتجاهها إلى مدن وموانى، تمنيت أن أشاهدها. طارت أعلى البنايات والبحار والصحارى والجبال والجزر والأنهار والأدغال والغابات والهضاب الصخرية.

حين تكرر طيرانها إلى آخر العالم، شغلنى السؤال: إلى أين؟..

الفرجة، والتعرف إلى الملامح، والدهشة، واجترار الصور، وإلقاء الأسئلة، يفقدها التكرار معناها.

لا أذكر عدد المرات التى بلغت فيها السجادة موضعا عرفته من قبل. ملت بها إلى مواضع أخرى تبينت أنى رأيتها، تعدد تنقلى، فلم أجد ما يجتذبنى. تكررت المرئيات إلى حد الملل، ولا أحد من هؤلاء الذين فعلت ما فعلت كى ألتقى بهم. أجاوز المسافات والجدران والعوائق، أجد الفهم والمؤانسة. هم قريبون منى بتصرفاتهم وأفكارهم، وإن كنت لا أتخيل ملامح ولاقسمات ولا وسيلة عيش.

يدركنى اليأس، فأعود إلى حيث البداية. أقضى وقتا، ثم أخلى للسجادة طيرانها، فى داخلى الشوق والحنين والفضول والتوقع والقلق، ومشاعر أخرى، كثيرة، لا أفهمها. أبحث عن هؤلاء الذين يشغلنى لقاؤهم، أجلس إليهم، نتدارس الأحوال والأوضاع، وماينبغى فعله.

المحتوى

صدر مؤخراً فى سلسلة

أصوات أدبية